من «الفرائد الحسان»

لقد كان لي وأنا أجول في رحاب المعجم القديم وقفات طويلة وقفت فيها علي نوادر جمة دعوتها «الفرائد الحسان». لقد كان لي من هذا الشيء الكثير الذي دعوته «معجم الفرائد» وهاأنذا أعود إلي شيء منه وأضيف إليه مالم يكن في درسي القديم.

ولي أن أبسط هذه «الفرائد» مع شيء زدته فقلت:

الأبّ:

قال الزجاج في قوله تعالي ﴿وفاكهة وأبّا﴾ ٣١ سورة عيس.

الأبّ: جميع الكلأ الذي تعتلفه المعاشية. وإلي مثل هذا ذهب الفرّاء. وفي حديث أنس: أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قرأ قوله تعالي: ﴿وفاكهة وأبّا﴾ وقال: فما الأبّ؟ ثم قال: ماكُلّفنا وما أُمرنا بهذا.

أقول: إن الأب من كلم التنزيل لم يكن العرب مما ألفوا، ومن أجل ذلك كان قول عمر فيه. وقد وقفنا علي شيء مما يتصل بـ «الأبّ» في سؤالات نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ.

إن «الأبّ» من الكلم السامي القديم، فأنت تجده في الأصول القديمة في البابلية الآشورية والعبرانية والآرامية، فهو من المشترك القديم في اللغات السابقة.

وكأن ابن دريد حين ذهب في هذه الكلمة ذات الأصالة إلي «المرعي» قد أومأ إلي ما أفادته العربية فيها من دلالة الكلمة علي النزاع إلي الوطن.

وكأني أري ان «الأوْب» و «الإياب» قد استفيدا من «الأبّ».

الأثّ:

ومنه الأثاث والأثاثة والأثوث بمعني الكثرة من كل شيء. وأثّه يأثّ ويؤُثّ ويـئِثّ فهو أثّ وأثيث. وأثّ النبات أي كثر والتف، ويوصف به أيضاً الشعر الجثّل، قال امرؤ القيس:

«أثيثٍ كقنو النخلة الـمُتعثكلِ»

وقال أبو زيد: والأثاث المال أجمع، الإبل والغنم والعبيد والمتاع.

وقال الفراء: الأثاث المتاع لا واحد له.

أقول: وكان أن اكتسب «الأثاث» في عربيتنا المعاصرة خصوصية فدلّ علي ما في البيت من فُرشٍ وأنماط ومقاعد ونحو هذا.

أرض:

قد أذهب في هذه الكلمة المشهورة في دلالتها إلي شيء خاص هو «الأرضة»، وهي دودة أو دويّبة بيضاء، وهي آفة الخشب. قالوا: أُرِضت الخشبة، فهي مأروضة.

أزم:

ومن هذا «الأزْمة» بمعني الشدّة والقحط، والأَزْم هو الجَدْب والـمَحْل.

أقول: ولي أن انظر إلي «الحزْم» والحزْم من الأرض الصلب الشديد، ومنه ذهب إلي «الحزْم» الذي يوصف به الحازم من الرجال.

الألل:

ومن هذا «الإلّ» بمعني الحلف والعهد، وبه فسّر أبو عبيدة قوله تعالي:

﴿لا يرقُبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمّة﴾ ٨ سورة التوبة.

والإلّ: القرابة، وفي حديث عليّ ـ عليه السلام ـ : «يخون العهد ويقطع الإلّ».

وأقول: إن «الإلّ» وكذلك «الإيل» في العربية وسائر اللغات السامية هو «الله» أيضاً. وليس عسيراً أن نذهب في «الإلّ» إلي الحلف والعهد، وليس عسيراً أيضاً أن نبتعد قليلاً إلي «أله».

بدأ:

أقول: ونقف علي «بَدَأ» فنري أن «بَدَهَ» و «بدع» غير بعيدين عن الأصل، وفي هذا التصرف بالإفادة من أصوات الحلق في الحرف الثالث ذهاب إلي سعة العربية.

تبر:

و«التبار» الهلاك، وفي التنزيل: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾ ٨ سورة نوح.

أقول: ولست في حَرَج أن أذهب إلي «ترب» وما يكون منها.

تلد:

قالوا: التالد: القديم. وقال ابن جني: التالد ما وُلد عندك من مالك أو نُتج، ولذلك حكموا أن تاءه بدل من الواو.

أقول: ومن هذا جمعوا بين ولد وتلد، وقالوا «إلدة» بمعني الولد.

جرش:

الجرْش: حكّ الشيء، وجَرَش الملح فهو جَريش ومجروش.

أقول: وقد بقي لنا من هذا «الجريش» للقمح يعالج بطريقة فيطبخ حساءً.

صمد:

«الصَمْد» القصد، والفعل صَمَد يصمُدُ.

قال تعالي: الله «الصَمَد». أي المقصود، وبناء «فَعَل» يدل علي «المفعول»، ومنه الجَلَب والحَلَب والنَفَض» وغير هذا كثير.

وقد تحوّل الفعل من كونه واقعاً متعدّياً إلي لازم فكان لنا منه في عصرنا «الصمود» بمعني الثبات والمقاومة.

وقد ذهب من هذا الأصل ماكان معروفاً مثل:

الصمّاد وهو الصّمام للقارورة، وهو العفاص والسّداد.

وبناء «فعال» كثير في أسماء الأداة والآلة.

فأين هذا في «الصمود» في العربية المعاصرة، وهو الثبات، وكذلك في قولهم: «صامدون».

و«صبَن» الشراب: اذا صرَفَه عمّن هو أولي منه.

و «الضِّمْد»: أن تتخذ المرأة صديقين، قال الهذليّ:

تريدين كيما تَضمِديني وخالداً وهل يُجمَع السيفان ويحَك في غِمْد

و«الضِّمار»: المال الغائب الذي لايُرجَي. وكل شيء لست منه علي ثقة فهو ضِمار.

أقول: في هذا خصوصية دلالية مفيدة.

و«ضَنأت المرأة ضَنْئاً، فهي ضانئ وضائنة، وأضْنأت: كثر وَلَدُها،

والضِّنء: الولد، بالكسر والفتح.

أقول: وفي هذا شيء مازال معروفاً في بعض الألسن الدارجة.

«الضَّهياء»: المرأة التي لاتحيض.

أقول: قد يكون هذا من الكلم الفني.

و«أضَفْتُه: انزلتُه عليّ.

أقول: هذا هو الصحيح الفصيح، ولم يكن «استضاف» الفعل الجاري استعماله في عصرنا.

و«الأضبط»: الذي يعمل بيَديه جميعاً.

أقول: وهذا غير «الأعسر» الذي يعمل بيده اليُسْري.

«الضِّيْزَن»: الذي يزاحم أباه في امرأته، قال أوس بن حَجَر:

والفارسية فيهم غير مُنكَرة فكُلكم لأبيـــه ضِيزَنٌ سَلِفُ

أقول: وفي هذه الكلمة إشارة تاريخية إلي ما قيل عند الفرس فيما قبل الإسلام من عادات ومنكرة، ربّما تأثر بها العرب.

ورجل «طَرِف»: لا يثبُت علي امرأة ولا علي صاحب.

أقول: وهذه خصوصية دلالية مفيدة.

وامرأة «طالق»: طَلَقها زوجها، و«طالقة» غداً.

أقول: وهذا يعني أن الصفة للمرأة ولكل مؤنث من الحيوان بغير تاء صفة ثابتة لاتتصل بزمن، بل تتصل بما يكون عليه الوصف، فإن كانت بالتاء فهي تفيد الاستقبال. علي أننا لانستوضح هذا استقراءً في جميع الصفات التي وردت مؤنثة بغير علامة أو بالعلامة.

«طمَّ» البئر: ملأها بالتراب.

أقول: وهذا مازال معروفاً في الألسن الدارجة، والمستعمل في الفصيح المعاصر:

«رَدَمَ» البئر أو الحفرة.

«الأطماع»، جمع «طَمَع» وهي أرزاق الجند.

أقول: وهذه كلمة تكثر في العصور العباسية.

وامرأة «مطْماع»: تُطْمع ولا تُمكّن، ورجل طَمِعٌ وطَمُع.

و«الطَّبْع»: السجية، وكذلك «الطَّباع».

و«الظَّنون»: السيّء الظن، والقليل الخير.

ويقال: سُؤت به ظنّاً، وأسأتُ به الظنَّ، يدخلون الألف في الفعل اذا جاءوا بالألف واللام.

و«الظَّنون» البئر لايُدرَي أفيها ماء أم لا، و«الدَّيْن الظنون» الذي لا يُدرَي هل يقضيه صاحبه.

و«المَظِنّة» للشيء: موضعه ومأَلَفُه، قال النابغة:

فإن يكُ عامرٌ قد قال جهلاً ... فإنَّ مظِنّـة الجهـل الشبـابُ

ويقال: عَظَّته الحرب بمعني عضّته.

أقول: وهذا من المواضع التي اختلط فيها الصوتان، وفي العربية مواضع أخري، وهي تشير إلي حدوث اللبس في أزمنة متقدمة.

و«الـمُلْك «عقيم»، لأن الرجل قد يقتل أباه علي الـمُلك.

أقول: وهذه فائدة تاريخية.

و«العَقْوة»: ماحول الدار.

و«الاعتقاب» في البيع أن تأبَى تسليم المبيع حتي تقبض الثمن.

أقول: وهذا من الكلم المفيد.

و«التعقيب»: غَزاة بعد غَزاة، و«التعقيب» في الصلاة: الجلوس بعد أن يقضيها لدعاء أو مسألة.

أقول: وهذا من الكلم التاريخي المفيد، والكلم الخاص.

و«العمالة»: أجر العامل.

أقولَ: وقد استحدثت «العَمالة» بفتح العين للعمل السيِّء الذي يقوم به خائن لبلده ووطنه.

و«العَنَت»: الخَطأ والغَلَط، وهو المشقّة أيضاً.

أقول: وهو في العربية المعاصرة: الظُّلْم.

و«الاعتناق» في الحرب، و«المعانقة» في المودّة.

أقول: وهما في الشعر سواء، وهما كذلك في العربية العاصرة.

و«العيادة»: عيادة المريض.

أقولَ: وقد «اَستُحدثَت» «عيادة» الطبيب، لمكانه، وغرفته التي يستقبل فيها الـمَرضَى.

«العَسُّ»: الطوف بالليل، وهو أيضاً «العَوْس».

أقول: ولابد أن يكون الأول أصلاً، ثم يصار إلي المعتلّ.

و«العَيوف» من الإبل الذي يَشَمّ الماء فيَدَعه وهو عطشان.

أقول: وقد يكون للرجل يعاف ما لايقبله ويرضاه فهو «عَيوف» عزوف.

و«العَيْقة»: مايحمل الميل من الكُحل.

أقول: وهذا من باب المقادير وحدودها.

و«العَوْل»: ارتفاع الحساب، وهو أن تنقص في إنهاء الوَرَثة.

أقول: وهذا من المصطلح في باب الوراثة، وأصله الميل إلي الجور في الحكم، قال تعالي: ﴿ذلك أدني ألاتعولوا﴾.

و«العَيلة»: الفاقة، والعائل: ذو العيال، وهو الفقير المحتاج.

أقول: و«العائلة» ذات صلة بالعيال والفقر، واختصت بمعني الأسرة في عصرنا، وربما تجاوزت الأسرة في الاستعمال.

وغلام «مُعْبَر»: لم يُختَن.

أقول: هذا من خصوصية في الدلالة.

و«العَتيرة»: شاة يذبحونها في أول رَجَب لآلهتهم، وكان الصنم المذبوح له يُسمَّي عترْاً أو عتيراً.

أقول: وهذه كلمة تاريخية مفيدة.

وفي أمثالهم: «إلا يكُن صَنَعاً فإنه يَعْتَثم»، أي إن لم أكن حاذقاً فإني أعمل علي قَدْر معرفتي».

وخذ ذا فاعتَثِمْ، أي استَعنْ به.

و«العَجير» من الخيل كالعَنّين من الرجال.

وهذه خصوصية مفيدة.

و«عَجَفَت» نفسي عن الطعام، إذا آثَرْتَ به غيرك وأنت تشتهيه.

أقول: وهذه دلالة مفيدة لانعرفها علي خصوصيتها.

و«إعجالة الراعي» ما يُعَجِّله لأهله من اللبن قبل الحَلْب.

أقول: تُنْظَر «الإحلابة».

و«العاجن»: الرجل إذا نَهَض اعتمد علي يدَيه كثيراً.

و«العَجيُّ»: الوَلَد.

أقول: وهذا مازال معروفا في عاميّة أهل الموصل.

و«العَدْوَي»: طَلَبُك إلي والٍ ليعديك على من ظَلَمَك.

أقول: و«العَدوَي في عصرنا خاصة بالمرض يتجاوز المريض إلي السليم.

و«عَذَبَ» الرجل، إذا لم يأكل فهو لا صائم ولا مفطِر.

أقول: وهذه خصوصية مفيدة.

و«العَذوب»: الذي ليس بينه وبين السماء ستر، وكذلك العاذب.

ورجل «عَروس» في رجالٍ عُرس، وامرأة «عروس» في نساءٍ عرائس.

أقول: ويأتي الفرق بين الرجل والمرأة في هذه الكلمة بصيغة الجمع لكل منهما.

و«المعزابة» الذي طالت عزبته.

أقول «مفعال» للمبالغة، والتاء زيادة فيها، كالعلاّمة والفهّامة.

و«العَسَب»: الكراء الذي يؤخَذ علي ضِراب الفَحْل.

أقول: وهذا في شؤونهم القديمة في سلوكهم وما يمارسونه.

و«عَصِبَ» الفم: إذا يبس فيه الريق حتي تتوسّخ الأسنان.

وهذا من «الفوائد» اللغوية.

و«العُطْب» : القطن، الواحدة «عُطْبة» .

أقول: وهذه مازالت في عاميّة أهل العراق.

و«غَلَثْتُ» في الطعام، اذا خَلَطْتُه حنطةً بشعير. ورجل «غَلِث»: شديد القتال، لَزوم لما طَلَب.، ويقال: غَلِثَ به: اذا لزِمَه ليقاتله.

و«الغَمَر» : ريح اللحم.

و«الغُول» مصدر غاله الشيءُ يغوله. واغتاله: اذا أخذه من حيث لم يُدْرَ.

والغَول: بعد المفازة لأنه يغتال من يمرّ به. والغيلة: الاغتيال.

أقول: كأن هذا كله من الأصل وهو «الغُول» وهو الحيوان، من السِّعالي الذي زعموا أنه يغتال من يراه، وهو من أوهامهم وخرافاتهم.

أما ذهاب المعاصرين ولاسيما أهل الشام إلي أخذ «الغَول» لمادة ما يدعَي «الكحول» لدي أهل العلم والكيمياء ففيه تجوّز وبعد عن الحقيقة.

وتقول: «أغالَت» المرأة و«غَيَّلَت» و «أَغْيَلَت» سقت ولدها علي الحَبَل لبنَها، ويُسمّي «الغَيْل» . والغَيِّل: الساعد الريّان الممتلئ.

و«الغيل» : الشجر الملتفّ.

و«الفَهْر» : أن يُجامع الرجل المرأة، ثم يُفرِغ في غيرها.

أقول: ولا أدري كيف كان هذا!!

وقالوا: فَعَلَه «من فَوره» .

أقول: ويقال في عربيتنا اليوم: فَعَله علي الفَور.

و«الفَوْت» : الفُرْجة بين إصبعين، والجمع «أفوات» .

ويقال: ماتَ موْتَ «الفَوات» إذا فوجئ.

وهو منّي «فَوْتَ» الرُمح: أي حيث لايبلغه.

أقول: وهذا كله يظهر سعة العربية في تحرّي الفروق في الدلالة، والإفادة من الأصل.

ويقال: بات الناس «فَوْضَي» ، أي مختلطين.

أقول: وقد اجتهد الأستاذ مصطفي جواد فأشار إلي أن «فوضَي» لابدّ أن تكون جمعاً علي «فَعْلَي» وهي علي هذا «فَضَّي» بالتضعيف، ومفردها «فضيض» ، وهي نظير «شَتَي» ومفردها «شتيت» ، ثم نسي الجمع وبقي دلالته.

و«الفدّان» آلة الثّوَرين للحرْث.

أقول: كأن «الفدّان» مُثنّى نُسي مفرده فلم يلمحوه ويذكروه، وهو «الفدّ». وإنا لنَلقَي هذا المفرد في كلمة «الفَرْد»، والراء في الكلمة جاءت من فَكّ الدال المدغَمة، وإبدال الدال الأولي راءً كما في «فَرْقَع» وأصله «فقّع» وغير ذلك.

وهو «الفذّ» بالذال أيضاً، وهذا هو الفَرْد أيضاً.

والماءُ «الفراط»: الذي يكون لمن سبَقَ إليه من الأحياء.

أقول: وهذا من موادّهم التي أفضت إليها حاجتهم إلي الماء.

و«الـمُفْرَج»: القتيل لا يدْري مَن قتله، وهو أيضاً «الحميل» الذي لا ولاء له إلي أحَد ولا نَسَب.

أقول: وهذا من الكلم ذي الدلالة التاريخية المفيدة.

و«الفُراج»: الذي لا يكتُم السِّرّ.

و«وفَزّعْتُ» عنه: كَشَفت عنه الفزَع، قال تعالي: ﴿حتي إذا فُزِّعَ عن قُلوبهم﴾.

أقول: والتضعيف في الفعل أفاد السَّلْب كقولنا قَشَّرت الفاكهة، أي نَزَعتُ قِشرها.

ومثل هذا: مرَّض الطبيب المريض أي عالجه وداواه وأزال مَرَضَه.

و«الفَشْخ: ضَرْب الرأس باليد (عن ابن دريد).

أقول: وهذا مازال في عامية العراقيين من غير اختصاص للضرب باليد، فقد يكون الضرب بأداة أو حجر.

و«الفَشَل» هو الضعف والتراخي والجبن، قال تعالي: ﴿إذ هَمَّتْ طائفتان منكم أن تَفشَلا والله وَلِيُّهما﴾.

أقول: وقد تحوّل «الفَشَل» إلي الخيبة في عربيتنا الحديثة.

ـ ورجل «فُضَل»: عليه قميص ورداء، وليس عليه إزار ولاسَراويل.

أقول: وهذا يظهر شيئاً في خصائص لباسهم.

و«الفضيخ»: رُطَب يُشرَخ وينْبَذ.

أقول: وهو ضرب من التمر بعد حقبة الإرطاب يسمونه «الزهدي» في العراق في عصرنا.

ـ و«فَطَس»: مات.

أقول: وهذا من الأفعال في عامية العراقيين، ولاتستعمل إلا في النبز والشتيمة، يقال فَطَس العدوّ، وفَطَس الحمار وغير هذا.

و«القُنان» : ريح الإبْط أشدّ مايكون.

أقول: وكأنه أشدّ من «الصُّنان» .

و«القُناقِن» : الدليل الهادي. والبصير بالماء تحت الأرض. والجميع : قَناقِن.

أقول: وهذا من الكلم الفنّي المفيد.

قال بعضهم: يقال لقطَع الذّهَب «القُذاذة» ، ولقطَع الفضّة «الجُذاذة» .

أقول وهذا بعض ما أفادوا في الوصول إلي الفرق في الدلالة بالحرف ومايقرب من ذلك الحرف، كالخَضْم والقضم، والقَطْف والقَطْم وغير ذلك.

ويقال للمدعوّ له: أقرّ الله عينه، وللمدعوّ عليه: اسخَن الله عينه.

وهذا دأبهم في كل ماهو قرّ بارد، فيكون ضدّه «السُّخْن» والسخونة أي الحرارة؛ مما يكرهون وسبب ذلك شدة الحرارة في بيئتهم، وهي نظير الموت، ولذلك قالوا: الموت الأحمر.

و«القَرور» : الماء البارد يُغتَسَل به.

و«الإقناع» : الإقبال بالوجه علي الشيء. و«الإقناع» : مدّ اليد عند الدعاء.

وهذا من الفوائد التي لانعرفها في عربيتنا المعاصرة.

و«القناف» : الأنف الكبير، و«القُناف» : الرجل الكبير الأنف.

أقول: وبه سمّوا «قُناف» لمن كانت هذه صفته.

و«القَهوة» : الخمر، قالوا: سُمّيَت بذلك لأنها تُقهي عن الطعام.

أقول: وليس كذلك، بل الفعل بهذه الدلالة أخذ من «القهوة» بمعني الخمر.

فأما دلالة «القهوة» علي البُنّ، فكأن الذين أحبّوا البنّ أعطوه اسم «القهوة» وهي «الخمر» لشغفهم بالخمر واستحسانه.

و«القبيل» جماعة من قبائل شتّي، والقبيلة بنو أب واحد.

أقول: وكأن «القبيل» يفيد الجمع، والواحدة قبيلة كقولنا: فَسيل وفَسيلة، وزكيّ وزكيّة. وغير هذا كثير.

و«القَباء» لضرب في اللباس، وهو من قَبَوت الشيء: جمعتُه.

أقول: إذا كان هذا الفعل، فهو من «القَباء» وليس العكس.

وهما «قتلان» أي مثلان.

أقول: وكثير من المَصادر علي «فَعْل» تُكسَر فاؤها ليجيء من ذلك وصف خاص مثل: المِسخْ في المصدر المَسخ، و«القِطْع» من المصدر «القَطْع» ، وغير ذلك.

و«أقحَطَ» الرجل: اذا خالَط أهله ولم يُنْزِل.

ويقال: إنَ «الـمُقْرِن»: الذي غَلَبَتْه ضَيعته، تكون له إبل وغَنَم ولا مُعين له عليها. أو يكون تُسقَي إبله ولا ذائد يذودها.

و«القاشور» و«القاشر»: الذي يجيء في الحَلْبة آخراً، وهو «الفِسْكِل».

و«القصائب»: الذوائب.

أقول: وهي الآن في عامية العراق وحدها. ولانكاد نظفر بها في العربية المعاصرة.

و «القَوْقَزة» للتّمر: معروفة.

أقول: وهي وعاء يُنسَج في خوص السعف علي هيئة كيس يُصَفّ (يُكتسي) فيها التمر. وهي مازالت معروفة في جنوب العراق.

و«القَفْخ»الضرب علي الهامة.

أقول: وهذا هو «الكَفْخ» في عامية أهل العراق.

و«الكسَ»: خروج الأسنان السُّفلي مع الحنَك الأسفل، ورجل أكَسُّ، وهذا من صفة خَلْق الإنسان مفيد.

و«استَكَفَفْتُ» الشيء: وهو أن تضعَ يدَك علي حاجبك، كالذي يستظلّ من الشمس، تنظر إلي الشئ، هل تراه.

وهذه فائدة جيدة.

وتقول: لقيتُه كَفَّةً كَفَّة: إذا فاجأته.

و«كُنْهُ» الشيء: غايته.

أقول: و «الكُنْهُ» في لغة المعاصرين هو حقيقة الشيء.

قال الخليل: «اكتوتي» الرجل: إذا بالغ في صفة نفسه من غير عَمَل.

و«الكِراء»: أجر المُستأجَر.

وهذا مازال معروفاً في بعض الألسن الدارجة.

و«كِراب» الأرض: حرْثها، وكذلك كَرْبها.

أقول: وهذا في الألسن الدارجة في عصرنا.

و«والكَزَم»: قصر الأنف والأصابع. وأنف أكْزَم.

أقول:وهذا من باب صفة«خَلْق الإنسان».

و«الإكسال»: أن يُخالط الرجل أهله ولايُنْزِل.

أقول: ينظر «أقحَطَ» الرجل.

و«الأكشَف»: الرجل لاتُرسَ معه. و«الكَشوف» من الإبل: التي يضربُها الفحل وهي حامل فتُمكِّنه.

و«الكِشاف» أيضاً أن يُحمَل عليها كل سنة وذلك إذا أراد النِّتاج.

أقول: وفي العربية مما يتصل بالإبل خَلْقاً وصفاتٍ ومواد أخري أدب واف، ولغة وافية و«الكَشَر»: بُدُوّ الأسنان عند التَّبسّم.

أقول: وهذا من عامية العراقيين في عصرنا، ولانظفر به في العربية الفصيحة، بل إنه يرد في الكلام عن الحيوان أو عمن يُنبز فيقال: كشر الأسد، وكشّر العدوّ. ولابد من ذكر تكملة هي «عن أسنانه».

و«الكَشْط»: تنحية الجلد عن الشيء.

وهذا أيضاً في الألسن الدارجة في عصرنا. وهو «القَشْط» أيضاً علي البَدَل.

ويقال: كلَّمتُ فلاناً «كفاحا»، أي وَجْهي إلي وَجْهه. ومن ذلك «المُكافحة» في الحَرْب.

أقول: ولم يبقَ لـ «كفاح» إلا الدفاع والكدّ والسعي الحثيث.

و«اللَّمَم»: مُقاربة المعصية من غير مواقعة.

أقول: ومن هنا قالوا: إنه أخف الذنوب، قال تعالي: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم﴾.

اللِّصُّ: معروف، وفِعْلُه «اللِّصوصيّة» بفتح اللام.

أقول: وهي «اللُّصوصية» بضم اللام، وكأنها أُخِذَت من جمع لصّ. هذا في عربيتنا المعاصرة. أما المصدر الصحيح، وهو مصدر صناعي، بفتح اللام، فكأنه أُخِذَ من «لَصوص» وهو نعت لم يوضَع.

و«اللِّضْلاض: الدليل. ولَضْلَضتُه: التفاته وتحفُّظُه.

أقول: و«الدليل» ممايحتاجون إليه، ومن أجل ذلك كثرت ألفاظه.

و«اللَّفيف»: ما اجتمع من الناس من قبائل شتّي.

أقول: وكأنه «القبيل».

و«لَهَسَ» علي الطعام: زاحَمَ حرصاً.

أقول: وهو من الكلم الدارج في عصرنا.

و«اللَّوَي»: وَجَع في الجوف، وهو مصدر علي «فَعَل» لأنه من الأدواء، ومثل هذا مازال في عامية أهل العراق.

و«الملأَم»: الذي يقوم بعُذر اللئام، وربما قالوا: «ملآم».

أقول: وهو من أبنية المبالغة، ولكنه أدّي معني خاصّاً.

و«اللُّبَد»: الرجل الذي لا يفارق منزله.

أقول: هو من قولهم: لبَدَ بالأرض لبوداً، وألْبَدَ بالمكان: أقامَ به.

و«اللَّبَن»: وَجَع العنق من الوسادة.

أقول: وهذا من الأعراض، ولذلك جاء علي «فَعَل».

و«لَثِق» الشيء: ابتَلّ، وطائر لَثِق: مُبْتَلّ بمعني التَصَق.

أقول: والفعل في العامية، لثق.

ورجل «مِلْحَس»: يأخذ كلّ ما قَدِرَ عليه من حرصه.

و«لَحَس» الشيء بلسانه.

أقول: وهذا كثير في الألسن الدارجة، قليل في العربية المعاصرة.

و«الـمُلْحَدّ»: الدعيُّ المُلْصَق.

أقول: وهذا مثل «الحميل»، ومثل هذا كثير، وهذا يدل علي عنايتهم بالأصول والأنساب.

و«ألْحَمتُكَ» عِرْضَ فلان: اذا أمكنتُك منه تشتمه.

ويقال للزرع إذا صارَ فيه القمح «مُلْحِم».

و«ألحَمَ» الدابَّةُ: إذا وَقَفَ فلم يكد يبرح.

أقول: وهذا مثل «حَرَن» الدابّة، والمصدر حِران.

ويقال: «لحَبْتُ» اللحمَ عن العظمُ الحبُه لَحَباً: أي قشرته.

أقول: وهو «لحَمْتُ» أيضاً وكأن هذا علي الإبدال، والأصل «لحَمَ» و«اللَّخَص» أن يكون الجفن الأعلي لحيماً، والرجل «أَلْخَص».

أقول: وهذا من أبنية المصادر الدالة علي الأدواء.

و«اللَّوذَعي»: الظريف.

أقول: وهو القادر القوي المتمكّن في العربية المعاصرة.

و«الملسون»: الكذّاب.

وهو صاحب «اللسان» المتكلّم في الألسن الدارجة.

و«التلسين»: أن يُعير الرجل فصيلاً لتدرّ عليه ناقته، فاذا دَرّتْ نُحّي، الفصيل.

أقول: وهذا من معرفتهم في الإبل وصفاتها وكيف يستفاد منها.

«لَطَعَ» الإنسان الشيء بلسانه، بلطَعُه؛ إذا لَحَسه منه في عربيتنا الفصيحة المعاصرة.

أقول: وهذا أشهر في الألسن

و«اللَّطَع»: بياض في باطن الشفة.

أقول: وهو شيء من الأعراض علي «فَعَل».

و«اللُّعوق»: اسم مايُلعَق، وهو بناء «فَعُول» في الأشربة والعلاجات كالسَّفوف، والسَّعوط، والوَجور، وغيرها.

و«اللُّعقة»: ماتأخُذه بالمِلْعَقة. و«اللَّعقة»: المرّة الواحدة.

و«اللَّعْوَقة»: السُّرعة فيما أُخذَ فيه من عَمَل في خِفّةٍ ونَزَق.

أقول: وهذه كاللَّهوَجة واللَّحْوجة.

و«اللُّعوق»: أقلّ الزاد.

قال الفرّاء: «اللَّعْوَة» هي السواد حول حَلْمة الثَّدْي.

وهذه من الكلم الذي يظهر سعة العربية في احتوائها علي «خَلْق الانسان» و «خَلْق الحيوان» ومايتصل بهما وما حواليهما في البيئة الواسعة.

و«اللَّعَج»: حرارة الحب في القلب.

أقول: هو بناء «فَعَل» في الأعراض، وهذا «كاللَّعَس» وهو السواد في باطن الشفة.

و«المَلاغم»: ماحول الفم. ومنه: تَلَغَّمْتُ بالطيب: إذا جعلتَه هناك.

و«اللَّغام»: مايبلغ طرف الأنف في اللِّثام.

أقول: وهذا ضرب من الفرق بالإفادة الحرف، ومايقرب منه.

«والألفَت»: الأعسر، وهوالأحمق، والعسير الخُلُق أيضاً.

وامرأة «لَفوت»: لها زوج ولها ولد من غيره، فهي تَلَفَّت إلي ولدها.

و«اللَّقوة»؛ المرأة تحبَل من أوّل وَقْعة.

و«الـمَشّ» ؛ مَشُّ اليد بالمنديل، و«الـمَشوش» هو المنديل.

١٨٣ – «الماسُ»: الرجل الذي لايقبل قول أحد، و«المأس»، الإفساد بين الناس.

أقول: وبين المهموز وغيره فرق دلالي.

و«الـمأج» ؛ الماء المِلْح، وهو بين «الـمؤوجة».

أقول: ومازال هذا في عامية أهل العراق بلفظ (مَجّ).

و«متّعْتُ» المطلّقة بشئ تنتفع به.

أقول: بمعني زوّدتها بمتاع.

و«المئة» في العدَد، وأمأَت الدراهم؛ صارت مئة وأمأيتُها أنا.

أقول: وهذا من إفادة العربية في توليد الفوائد اللغوية.

و«الـمَجَع»: أكل التمر باللّبَن.

وامرأة «مَجِعَة»: تتكلم بالفحش.

و«الـمُجون»: ألا يبالي الإنسان بما صنَع، و«الـمُماجن» من النُّوق: التي ينزر عليها غير واحد من الفجولة.

أقول: والمجون: العبث باللهو والشرب والفجور، وهذا هو الذي يفي للكلمة.

و«الماخور»: الموضع الذي تباع فيه الخمر.

أقول: و«الماخور» وجمعه المواخير، قد انصرَف إلي مكان الريبةوالفاحشة، مع دلالته علي الأصل في الاستعمال المعاصر. وهو معرّب «ماخور» بالفارسية.

و«الماخض»: الحامل إذا ضربها الطَّلْق.

و«المَدْه»: يُضارع الـمَدْخ، إلا أن «الـمَدْه» في نعت الجَمال والهيئة، والمَدْح عامّ في كل شيء.

و«أمرَضَ» الرجل: اذا قارَبَ إصابة حاجته، قال كثير:

ولكن تحت ذاك الشَيب حَزْمٌ إذا ما ظُنَّ أمرَضَ أو أصابا

و«الـمَرْضَ»: إشباع الدُّهن. و«الإمراغ» في العجين: أن يكثر ماؤه كالـمَرْخ، وهو أيضاً: كثرة الكلام في غير صواب.

أقول: و«مرَغْتُه في التراب فتمرَّغ. وهذا كل الذي بقي من هذه الفوائد في العربية المعاصرة.

و«مَرِحَت» العين: إذا نظرت من وراء اليد إلي الشيء. قال النابغة الجعديّ:

كأنَّ قذيّ بالعين قد مَرِحت به وما حاجة الأخري إلي الـمَرِحان

و«مَرَد» الطعام يمرُدُه مَرْداً: إذا مرَّسَه ليَلين، ومَرَد الصبيّ ثدى أمه. و«الـمَريد»: التمر يُنقع في اللبن.

أقول: وهذا كثير في الألسن الدارجة وقلّما يرد في الفصيحة المعاصرة.

ورجل «مُسكة»: إذا كان لايتعلّق بشيء فيتخلص منه.

و«الـمَسْى»: أن يدخل الراعي يَدَه في رَحِم الناقة ويمَسُط ماء الفحل كراهة أن تحمل له، ومَساه يمسيه.

أقول: وهذا من ممارستهم في الإبل.

و«المسيح»: الذي أحد شِقّي وجهه ممسوح لاعين له ولاحاجب، وبذلك سُمّي «الدجّال» مسيحاً.

و«المسيح» عيسي ـ عليه السلام ـ كأن وجهه مُسِحَ بالجمال مَسْحاً.

وشربت «مَشواً ومَشياً»: وهو الدواء الذي يُمشي.

أقول: والفعل من هذا ثلاثي ومضعف معروف في العامية، يقال: «مشت» بطنه وتمشي، والماء «يمشّي» البطن.

و«الماصِع» من المياه: المِلح.

أقول: وهو ضد «الماسخ»، أو «الماصخ» في الألسن الدارجة.

و«المُمْصِل»: المرأة تُلقي ولدها وهو مُضْغة.

و«المصواء»: المرأة التي لا لحم علي فخذَيها.

أقول: ومثل هذا في بعض الألسن الدارجة.

و«التمصْر» حَلْب بأطراف الأصابع، وناقة «مَصور»: إذا كان لَبَنها بطيء الخروج. و«الـمصْر»: بقية اللبن.

و«مَعَنَ» الماء: جَرَي، وهو «مَعين».

أقول: وهذا الأصل لابد أن يكون من الأصل البعيد وهو «العَين».

و«الأَمْعَط»: الذي لا شعر له.

أقول: وهذا كثير في العامية. ومثله الأمعرُ والـمَر.

و«الـمُغْل» من النساء: التي تحمل قبل فطام الصبي.

و«أمغَلَ» فلان بفلان: إذا سعَى به.

و«المَغَص» تقطيع في المِعَي ووَجَع.

أقول: وهذا هو المشهور في المصطلح الطبيّ في عصرنا.

و«المُقْلة»: الحَصاة تُلقيها في الماء حتي تعرف قَدرُه، قال الشاعر:

قَذَفوا سيّدهم في وَرْطـة قَذْفَك الـمُقلة وسط الـمُتَرَكْ

ونكاح «الـمَقْت أن يتزوّج الرجل امرأة أبيه.

وهذا من مثالبهم.

و«الماقط: الحازي الذي يتكهّن ويضرب بالحصَي.

أقول: الماقط» من الغريب، ولكن «الحازي» قد بقي شيء منه في عامية أهل جنوب العراق، وهو الذي يحرز ويخمّن ويقول ماسيكون.

و«الـمَلأ»: أشراف القوم، و«المَلا» غير مهموز: المفازة.

و«الـمَلَج»: تناول الثدي بأدني الفم. وفي الحديث: «لا تُحرِّم الإملاجة والإملاجتان.

و«الـمُلْحة» في الألوان: بياض يخلطه سواد.

أقول: وهذا من الكلم الدارج في عصرنا، وكذلك «الأملح» لكل شيء.

ويقولون في البَيع: «المَلَسي» لا عُهْدَة: أي لا مَتَعَلّق.

و«النُّمنُم»: البياض يكون علي الأظفار، الواحدة نُمنُمة.

و«النَبَخ»: ما نفطَ من اليد فخرج شبه قرح ممتلئ ماءً.

و«النَّبْغ»: ما تطايَرَ من الدقيق إذا طُحِن.

و«نَبَغَ» الرجل: إذا لم يكن في إرث من الشعر، ثم قال وأجاد. وبه سُمِّي النابغة.

و«النَّبَه»: الضالّة توجد عن غَفلة، لا عن مطلب، تقول: وجدتُه نَبَهاً.

و«نَبا» بفلان منزله: إذا لم يوافقه، وكذلك فراشه.

و«النبيّ»: الطريق.

ورَمَي «فأنبأ»: إذا لم يخدش.

و«النابئ: الذي ينبَا من أرض إلي أرض. وسَيْل «نابئ: أتي من بَلَد إلي بَلَد.

ورجل نابئ: مثله، قال الأخطل:

ولكنْ قذاها كلُّ اشعَثَ نابئٍ أتتْنا به الأقدار من حيث لا ندري

و«نَتَحت المرأة: إذا نَظَرت ثم اختبَأتْ.

ورجل «نُتَفة»: ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصي.

و«النَّثَا»: الذكر القبيح.

أقول: كأنَه ضد «الثناء».

و«نَجُدَ الرجل: ينجُدُ نَجداً: إذا عَرِق من عَمل أو كَرْب، و«النَجَدَ»: العَرَق.

و«المُنَجَّد»: الرجل المجرَّب.

و«النَّجْر»: الطَّبْع.

و«النَّجيس»: شيء كانت العرب تفعله من تعليق عُوذةٍ أو خَرَزة علي الصبي دَفْعاً عنه.

والناجِس: داءٌ لا دواء له. قال ساعدة بن جؤيَّة:

والشيب داء نَجِيس لا دواء له للمرء كان صحيحاً صائب القُحَم

و«المنجوف»: المنقطع عن النكاح.

و«نَجَا» ينجو نجاةً. ومن السرعة «نَجاء».

أقول: وقد فُرِّق في المصدر بين الأول والثاني.

و«المَنجوب»: القَدَح الواسع.

و«النجيثة» والنَبيثة والنثيلة، كلها بمعني ما أُخرج من تراب البئر.

و«النَّحْض»: اللحم، وامرأة نحيضة: كثيرة اللحم، فإذا ذهب لحمها فهي «منحوضة».

و«النحيط»: الزفير، وهو «النَّهيت» و «النُّهات»، و «النَّحطة»: داء يأخذ الإبل في صدورها.

و«النُّحل»: عطاء بلا استعواض. ونَحَل المرأة مهرها عن طيب نفس من غير طَلَب، وانتَحَل الرجل الشعر: ادّعاه، قال الأعشى:

فكيف أنـا وانتحالي القـوا في بعد المشيب كفي ذاك عارا

وانتحلت الشيء: ادّعيتَه وانت مُحقّ. وتَنَحّلته: ادعيته مُبطلاً.

و«النَّخور»: الناقة لا تدرّ حتى تُدخل إصبعك في أنْفها.

و«النُّدْغة» : البياض في آخر الظُّفر. وهو «النُّمنُمة» وقد مرّت.

و«النُّدْس» : الفَطِن، وهو «النُّدُس» : السريع الاستماع للصوت الخفيّ.

و«النَّزائع» : من النساء: اللواتي يُزوَّجْنَ في غير عشائرهن، وكل غريب «نزيع».

و«النَّزْعة» : الموضع من رأس الأنزع، وهما «النَّزعتان» : ينحَصّ عنهما الشعر.

ولا يقال: امرأة نَزْعاء، ولكن يقال: زَعْراء.

ومكان «نَزِل» : يُنْزَل فيه كثيراً. و«النُّزْل» : ما يُهيَّأ للنزيل.

وطعام ذو «نَزَل» : أي ذو فضل.

و«النزالة» :ماءالرجل.

ويقال: خرَجْنا «نَتَنزّه» : إذا ابتعدنا عن الماء والريف، ومكان «نَزيه» : خلاء ليس به أحد.

و«النَّسْل» من اللبَن ما يبقَي علي رءوس الأحاليل. و«النَّسَل» : لَبَن التين.

و«النَّسْي» : ما سقط في منازل المرتحلين من رُذال أمتعتهم، فيقولون: تَتَبَّعوا أنساءَكم، قال الشنفري:

وكأنّ لها في الأرض نسْياً تقُصُّه علي أُمِّها وإن تُكلِّمْكَ تَبْلَت

و«نُسئَت» المرأة: وهي التي تأخّر حيضُها عن وقته، فرُجِيَ أنها حُبْلَي.

و«النَّسيء» : بيعُك الشيءَ نَساءً. و«النِّساء: التأخير، تقول: أنسأت. ونَسأَ الله في أجَلِك، وأنسأَ.

و«النَّسيء» : التأخير، وهو كذلك في لغة التنزيل.

وكانوا إذا صدَروا عن مِنيً يقولُ رجل من كنانة: أنا الذي لا يُرد لي قضاء، فيقولون: أنسئنا شهراً، أي أخِّره عنّا حرمة المحرَّم، واجعلْها في صَفَر، وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالي عليهم ثلاثة أشهر لايُغيرون فيها، لأن معاشهم كان من الغارة، فيحِلّ لهم الكناني المحرَّم، فقال تعالي: ﴿إنما النَّسيء زيادة في الكفر﴾.

و«النَّشوع» : الوَجور، يقال: نَشَعتُ الصبيَّ فانتَشَع.

أقول: وهو «فَعُول» من الأشربة والعلاجات. وكذلك «النّشوق».

و«النشيل» : اللحم يطبَخ بلا توابل.

و«المنْشَل» : موضع الخاتم من الخِنْصِر.

و«النَشأ» : نسيم الريح الطيّبة.

و«النَّشء»: أحداث الناس.

ورجل «نَشْيان»: يتَخيَّر الأخبار.

و«نَشَدْت»: الضالة: طلبتها، و«أنشَدتُها» عرَّفتها.

أقول: وهذا يدخل في باب الفرق، بين الثلاثي والمهموز.

و«النَّصَف»: الخُدّام، الواحد: ناصف.

و«النَّصاحات: السُلوك التي يُخاط بها.

و«النِّضال»: الـمُراماة، ونضَلَ فلان فلاناً في المراماة: إذا غَلَبَه، وناضلتُه فنَضَلتُه. وفلان «يناضل» عن فلاناً: إذا تكلَّم عنه بعذره. وانتضَل القوم وتناضلوا إذا رموا للسبق.

أقول: و«النضال» في عربيتنا اليوم جهاد وكدّ.

وفلان «نَضِج الرأي: أي مُحكمَه.

ويقال للناقة إذا جاوزت وقت ولادتها ولم تلد: نَضَّجَتْ، وهي مُنَضِّج، قال:

هو ابن مُنضجّاتٍ كن قِدْماً ... يزِدْنَ علي العديد قراب شهر.

فإذا أدخلتَ الهاء ليس إلا قرابه.

و«النَّضوح»: ماينضح من ماء الحوض.

و«النَّضير»: الذهب، و«النُّضار»: الخالص من جوهر التِّبْر والخَشَب.

ويقال: جاء فلان «منتطقاً» فرسَه: إذا جانَبَه ولم يركَبه. قال:

وابرَح ما أدام الله قومي ... علي الأعداء منتطقاً مُجيدا

أي قد شدَّ عليه النطاق.

و«التنطُّس»: التقَرّز.

و«أنظَرْتُه»: أخرْتُه. والنَّظرة: التأخير.

وإن في رأسه «لَنُعرة»، و«النُّعْرة»: ذبابة تقع في أنف الحمار، وحمارٌ نَعِر.

أقول: وفي عربيتنا المعاصرة «النَعَرات» وتضاف إلي «الطائفية» في الأغلب، وتعني الفتن التي تتصل بـ «الطائفية».

يقال: نَعَشَه الله وأنعَشَه.

أقول: والمتحرّون للصواب من أهل التصحيح يخطِّئون «الإنعاش».

ونفقت الدابّة نفوقاً. ونَفَق السِّعر نَفاقاً.

أقول: والفرق يظهر في بناء المصدر.

و«النَّفَل»: الغُنْم. و«انفلتُك: أعطتك نَفَلاً. والنافلة: العطية ومنه نافلة الصلاة.

و«النَّفّاج»: المفتخر بما ليس عنده.

ويقولون: «نَفَّرت» عن الصبيّ: أي لقَّبْتُه لَقَباً، كأنّه عندهم تنفير للجن والمعين عنه.

و«اللقب» في الغالب: ما لايرتضي من الكلم، وهذه العبارة تشير إلي هذا.

و«النَّفْس»: العَيْن. أصابتْ فلاناً نَفْس. و«النَّفْس»: الدِّباغ، يقال: هَبْ لي نَفْساً من دِباغ، فيَهَبُ له قَدْر ما يُدْبَغ به الأديم. و«النِّفاس»: وِلاد المرأة، فاذا وَضَعت فهي نُفَساء.

و«النَّفَض»: ما تساقط في أصول الشَجَر من الثَّمَر.

و«النَّفَضة»: قوم يُبْعَثون في الأرض، ينظرون هل بها عَدُوّ، وكذلك «النَّفيضة».

و«النَّفَط»: ما يخرُج في اليد من العمل، ونَفِطَت يده.

و«النُّقاوة: أفضل ما انتقَيتَ من الشيء. و«نَقاة» كل شيء: رديئه ما خلا التَّمْر فإن «نَقاته»: خِياره.

و«النَّقْض»: نَقْض الحبل والبناء والعهد. و«النَّقَض»: المنقوض.

و«ناقف» الحنظل: الذي يستخرج «الهبيد» وهو حَبّ الحنظل الذي يأكلونه.

و«النَّكِد»: كل شيء خَرَج إلي طالبه بشدّة.

أقول: وليس في «النَّكَد» ولا «النَّكِد» هذه الخصوصية في العربيَة المعاصرة.

و«النُّكُس»: المرض، ويقال: تَعْساً له ونُكساً.

و«الأنكَع»: المتقشّر الأنف.

و«النَّمَسُ»: فساد السَّمْن. و«الناموس»: قُتْرة الصائد.

و«ناموس» الرجل: صاحب سِرّه.

و«النَّمَش»: خطوط النقوش.

أقول: و«النَمَش» في عربيتنا المعاصرة نقط سود تظهر علي الوجه.

وفي الحديث: «خير هذه الأُمّة «النَمَط» الأوسط يلحق بهم التالي.

و«نمَّقْتُ» الكتاب: اذا حسَّنته وجَوَّدته.

وطعام «مَنمول»: إذا أصابه النَّمْل.

هَبَّت الريحُ هبوباً، والتَّيس «هَبيباً»، والنائم «هَبّاً».

والسيف «هَبّة»، والبعير «هباباً».

أقول: والفرق في المصادر.

والهَبْهَبيّ: الراعي، ويقال: القصّاب.

ويقال للفتي السريع في الخدمة: هَبْهَبيّ.

وثوب «هَلْهَل»: سَخيف النَسْج. وشعر «هَلْهَل»: رقيق.

أقول: وهو ثوب «مُهَلْهَل» في العربية المعاصرة.

ويقال: «هَلْهَلْتُ» أُدركُه كما تقول: كدت أدركُه.

أقول: وهذا يدخل في أسلوب «المقاربة» مثل كاد وأوشَك.

و«التهويد»: المَشي الرُّوَيد. و«هوَّد» الرجل: إذا نامَ. و«هوَّد» الشراب نفْسَ الشارب: إذا خثَّرت له نفسه.

أقول: ولم يبق شيء من هذا في العربية المعاصرة، بل بقي في الألسن الدارجة.

و«الهُواع»: القَيء.

أقول: هو كذلك في عامية أهل العراق، وليس في الفصيحة المعاصرة.

و«هوَّل» القوم علي الرجل: إذا حلَّقوه عند نارٍ يُهوِّلون بها عليه، قال أوس:

إذا استقبلَتْه الشمس صدَّ بوجهه كما صدَّ عن نار المُهوِّل حالفُ

أقول: و«نار المُهوِّل» من نيران العرب في الجاهلية.

ورجل «مستَهْتَر»: لا يُبالي ما قيل له.

أقول: وهو «المُستَهتِر» وزن اسم الفاعل في العربية المعاصرة، وهو السفيه الخارج عن الحدود في القول والعمل.

و«الهِدْم»: الثوب البالي.

أقول: وهو كذلك في الألسن الدارجة، وقلّما يرد في الفصيح المعاصر.

و«المِهْدَى»: الطَبَق يُهدَ عليه.

و«الهَدِي»: العروس.

أقول: وهي «فَعيل» بمعني مفعول أي أنها تُهدَى إلي بعلها.

و«هَدَأت الرِّجْل: إذا نام الناس.

أقول: وهذه في الألسن الدارجة، ولاترد في العربية المعاصرة.

و«التهدُّج»: تقطّع الصوت.

و«الهَرْف»: كالهذيان بالثناء علي الشيء إعجاباً به.

أقول: وهو «الهَذيان» من غير خصوصية في العربية المعاصرة، يقال: لاتَهرِف بما لا تعرِف.

و«ابن هَرْمة»: آخر وَلَد الرجل.

و«هُزِلت»: الدابة. وهزَل في منطقه. وأهْزَلَ الرجل: إذا وَقَع في ماله الهزُال.

وأرض «هَلَكون»: أي جَدْبَة.

وامرأة «هَمْشى»: كثيرة الحديث.

و«الهَنَمة»: خرَزة كان النساء يُؤَخِّذن بها الرجال.

و«الـمُهَيمن»: الشاهد.

أقول: وهو «القدير المتسلّط في العربية المعاصرة.

و«وجَدْت» الضالّةَ وِجداناً، و«وَجَدْتُ» من الحُزن وَجْداً، ومن الغَضب مَوْجِدة»، ووَجَدْت في المال وُجْداً.

أقول: وفي هذا كله مادة في الفرق تبدو في المصادر.

الوَحَم والوحام: شهوة المرأة الشيء علي الحبَل. وامرأة وَحْمَي.

وقد «وَحَّمناها»: أي أطعمناها شهوتها.

خاتمة:

هذه موادّ اخترتها لفوائدها الخاصة التي بعضها تاريخي يتصل بتطور الدلالة وبعضها حاجة بنا إليها، وبعضها الآخر بيان لسعة العربية وإفادتها من المواد في توليد المعاني.

مستدرك:

ورجل «مِخْلَط مِزْيَل»، بكسر الميم فيهما: يخالط الأمور ويزايلها.

و«الخِلْط»: المختلط بالناس، المتحبّب المتملّق لهم، وكذلك «الخَلِط».

و«صَنَع» اليد، و«صُنُع» «صُنْع» و «صِنْع»: صانع حاذق.

نظرة في الأمثال

مقدمة

قالوا: إن الشعر ديوان العرب، وهذا يعني أنه حفل بكثير من معارف العرب. وقد فطن المحدثون إلي أن الشعر أعرب عن بيئتهم البدوية كما أعرب عماكان لهم من ألوان حضارية. وكان عبد الله بن عباس يعود إلي الشعر إذا سئل في شيء من ألفاظ القرآن. وسؤالات نافع ابن الأزرق في هذا معروفة مشهورة.

وكان عمر بن الخطاب يوصي بهذا فكان يحث المسلمين الأوائل الذين لم يدركوا شيْئاً مما ورد في لغة التنزيل علي الرجوع إلي «ديوان العرب».

غير أني أقول: إن المثل القديم مورد آخر من موارد الفوائد التي تتصل بالعرب في بيئتهم البدوية وبما كان قد عرفوه من أسباب العيش الأخري. وقد رأيت أن أبدأ مسيرة تاريخية في هذا اللون من الأدب القديم فأقف علي شواخص هذا الأدب القديم، وماتشير إليه من فوائد لغوية وتاريخية وغير ذلك[1].

لقد كان من حديث رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكثير من نوابغ الكلم الذي اندرج في باب «المثل» البليغ، ومنه قوله ـ صلي الله عليه وسلم ـ:

١- «إن المُنبَتَّ لا أرضاً قَطَع، ولا ظَهْراً أبقى».

جاء في «مجمع الأمثال»:

المنبَتّ: المنقطع عن أصحابه في السَّفَر، والظَّهْر: الدابّة.

قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد في العبادة حتي هجمت عيناه، أي غارتا، فلما رآه قال له: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إنّ المنبَتّ» أي: الذي يجدّ في سيره حتي ينبَتّ أخيراً، سماه بما تؤول إليه عاقبته، كقوله تعالي: ﴿إنك ميّت وإنهم ميّتون﴾.

يُضرب [هذا] لمن يبالغ في طَلَب الشيء، ويُفرط حتي يُفوّته علي نفسه.

---

(١) سيكون دليلي في هذه المسيرة كتاب «مجمع الأمثال» أستقربه فأثبت الفوائد التي وجدت أن من العلم أن يوقف عليها. (بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة ١٩٧٢).

أقول: إن هذا الـمَثَل يشير إلي شيء من لوازم البيئة البدوية، فالرحيل أسلوب العيش في تلك البيئة التي شهدت حال «المنبَتّ» الذي لم «يقطع أرضاً» ولم «يبق» له «ظهراً» أي «راحلة».

وكأن العربية استجابت لهذه الحاجات البدوية، أو قل إن أصحاب هذه البيئة اجتهدوا في لغتهم فاهتدوا إلي هذه الرموز التي تتصل بحاجاتهم في هذه البيئة البدوية.

٢- ومن قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صفة الدنيا والحثّ على قلّة الأخذ منها:

«إن ممّا ينبت الربيع مايقتل حَبَطاً أو يُلمّ...».

جاء في «مجمع الأمثال»:

«الحَبَط: انتفاخ البطن، وهو أن تأكل الإبل الذُرَق فتنتفخ بطونها إذا كثرت منه،

..... وقوله: أو يُلمّ» معناه «يقتُل أو يَقرُب من القتل».

والإلمام: النزول، والإلمام: القرب[1]، ومنه الحديث في صفة أهل الجنّة «لولا أنه شيء قضاه الله لألَمّ أن يذهب بَصَره لما يري فيها» أي: لَقَرُب أن يذهب بَصَره.

قال الأزهري: هذا الخبر ـ يعني «إن مما يُنبت» ـ إذا بُتِرَ لم يكد يُفهم، وأوّل الحديث:

«إنّي أخاف عليكم بعدي ما يُفْتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها».

فقال رجل: أو يأتي الخير يارسول الله؟

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنّه لا يأتي الخيرُ بالشرّ، وإنّ مما يُنبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلمّ، إلاّ آكلة الخَضِر فإنّها أكلت حتى إذا امتلأَت خاصرتاها استقبلت عين الشمس وثَلَطَت وبالَتْ ثم رَتَعَت».

هذا تمام الحديث.

قال: وفي هذا الحديث مَثَلان: أحدهما للمفرط في جمع الدنيا وفي مَنعِها من حقّها.

والآخر للمقتصد في أخذها والانتفاع بها.

ويضرب هذا في النهي عن الإفراط.

أقول: وفي هذا الحديث الذي أرسل مثلاً بليغاً تبدو البيئة العربية حيّة بشخوط من إنسان وحيوان، والجمَل في حياة البدوي القديم يشارك البدوي في تلك الحياة القاسية. فليس غريباً

(١) أقول: ويمكن أن يضاف هذا الفعل إلي أفعال المقاربة (كاد وأوشك وكرب).

أن يخاطب البدوي الجمل خطاب من يعقل، ومن هنا فلا أرانا نضيف في فهم قول الراجز القديم:

شكا إليَّ جَمَلي طول السُّـــرَي
يا جَمَلي ليس إليَّ المشتكـــــي
صبراً جميلاً فكلانا مبتلـــــي

ولعل بسبب هذا كان للبدوي القديم عناية بالإبل فكانت لغة خاصة، وكان معجماً حافلاً بخَلق الإبل، وخلقه وعاداته، ومايعرض من شؤونه وأحواله. وكان أدباً خاصاً ربما وجدنا آثاره لدي شعراء حضريين عرفوا الحواضر وابتعدوا عن البوادي.

٣- إن الشقيَّ وافدُ البراَجم

قاله عمرو بن هند الملك، وكان سويد بن ربيعة التميمي قَتَلَ أخاه وهَرَب، فأحرَق به مئةً من تميم: تسعةً وتسعين من دارم وواحداً من البراَجم، فلُقِّبَ بـ «المُحرِّق»، والقصّة طويلة.

يُضرَب لمن يُوقع نفسه في هلَكة طمعاً.

أقول: وهذا المثل كسائر الأمثال القديمة تعرب عن شيء كثير من ممارسات العرب الأقدمين في الحياة البدوية. إن القتل أو الفتك كان بينهم معروفاً، وإن طلَب الثأر من أخلاقهم، وأن في الأدب القديم صفحات تكشف عن هذا.

وسأمضي في بسط ما يتصل بالبيئة البدوية القديمة في هذه الآثار الأدبية التي يعطي فيها المثل القديم شواهد كثيرة.

٤- إن البُغاث بأرضنا يستنسر.

قال الميداني: البُغاث: ضرب من الطير، وفيه ثلاث لغات: الفتح والضمّ والكسر، والجمع بِغثان، قالوا: هو طير دون الرخمه،

و«استنسر»: صار كالنَّسْر في القوّة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير.

يُضرب للضعيف يصير قوياً، وللذليل يعزّ.

أقول: وهذا مثل قديم خلصوا إليه من تجاربهم، وإن البدوي القديم يرسله بعد تجربة طويلة فيتمثّل به الآخرون الذين يعرض لهم شيء من هذا.

وأنت تجد تشبيهاتهم مأخوذة مما يعمر تلك البيئة من مظاهر الطبيعة التي سنراها ومما يبرزالحياة فيها من الطير والدواب والإنسان.

٥- إن الجبان حَتْفُه من فَوقه.

قال الميداني: الحَتف: الهلاك، ولا يُبنَى منه فَعّل.

وخصَّ هذه الجهة (فوق) لأن التحرّز ممّا يأتي من السماء غير ممكن، يُشير إلي أن الحَتْف إلي الجبان أسرعُ منه إلي الشجاعة، لأنه يأتيه من حيث لا تدْفَع له.

قال ابن العباس:

أوّل من قاله عمرو بن أمامة[1] في شعر له، وكانت مُراد قتَلَته فقال هذا الشعر عند ذلك، وهو قوله:

لقد حَسَوتُ الموتَ قبل ذَوقه ... إنّ الجبان حَتْفُه من فَوْقه

كلُّ امرئٍ مُقاتـل عن طَوْقَه ... والثَّورُ يَحمي أنفَـه برَوْقَـه

ويُضرب في قلّة نَفْع الحَذَر من القَدَر.

والذَّوْق: مقدّمة الحَسْو، فهو يقول: قد وطّنْتُ نفسي على الموت، فكأنيّ بتوطين القلب عليه كمن لقيه صُراحاً.

٦- إن المُعافَى غير مخدوع.

يضرب لمن يخدَع فلا ينخدع،

والمعني: أن مَن عوفي مما خُدِع به لم يضرَّه ما كان خودع به.

قال الميداني في «مجمع الأمثال»:

وأصل المثل أن رجلاً من بني سُليم يُسَمَّي قادحاً كان في زمن أمير يكني أبا مظعون، وكان في ذلك الزمن رجل آخر من بني سُلَيم أيضاً يقال له سُلَيْط، وكان عَلِق امرأة قادح، فلم يزَل بها حتي أجابَته وواعدته، فأتي سُلَيْطٌ قادحاً وقال: إني عَلِقت جاريةَ لأبي مظعون، وقد واعدتني، فإذا دَخلتَ عليه فاقعُد معه في المجلس، فإذا أراد القيام فاسبِقْه، فاذا انتهيت إلي موضع كذا فاصفرُ حتي أعلم بمجيئكما فأخُذَ حذري، ولكَ كلَّ يوم دينار، فخدعه بهذا، وكان أبو مظعون آخر الناس قياماً من النادي، ففعل قادحٌ ذلك، وكان سُلَيْط يختلف إلي امرأته، فجرَيَ ذكر النساء يوماً، فذكر أبو مظعون جواريَه وعفَافهن، فقال قادح وهو يُعرِّض بأبي مظعون:

ربمّا غُرَّ الواثق، وخُدِع الوامق، وكَذَب الناطق، وملَّتِ العاتق، ثم قال:

---

(١) الشعر في «لسان العرب» (روق) منسوب إلي عامر بن فهيرة، وانظر ترجمته في «الإصابة» رقم ٤٤١٥، والشعر هناك أيضاً، ولعلّه تمثّل به.

لا تَنطِقَنَّ بأمـرٍ لا تَيَقَّنُـهُ يا عَمرو إن الـمُافى غير مخدوعِ

وعمرو: اسم أبي مظعون، فعلم عمرو أنه يُعرِّض به، فلما تفرَّق القوم وثب علي قادح فخَنَقَه

وقال: اصدُقني، فحدّثه قادح بالحديث فعرف أبو مظعون أن سُلَيطاً قد خدَعه، فأخذ عمرو بيد قادح ثم مرّ به علي جواريه فاذا هُنّ مُقبلات علي ما وُكلنَ به لم يفقد منهن واحدة، ثم انطلَق آخذاً بيد قادح إلي منزله فوجد سُلَيطاً قد افترَش امرأته، فقال له أبو مظعون: إن المعافَي غيرُ مخدوعٍ، تهكُّما بقادح، فأخذ قادح السيف وشدَّ علي سُلَيْط، فهرَبَ فلم يدركه،ومال إلي امرأته فقتَلَها.

أقول: وهذه حكاية طويلة قد تكون مما أُلِّف وصُنع، ولكنها ليست غريبة في تلك البيئة القديمة التي أفصح عنها المثل المذكور.

٧- إن وراء الأكَمة ما وَراءها

قال الميداني: أصله أن أمةً واعَدَت صديقها أن تأتيه وراء الأكَمة إذا فرغت من مهنة أهلها ليلاً، فشغلوها عن الإنجاز بما يأمرونها من العمل، فقالت حين غَلَبَها الشوق: حبستموني وإن وراء الأكمة ما وراءها.

يُضرب لمن يُفشي علي نفسه أمراً مستوراً.

أقول: وهذا المثل يعرب عن سلوكهم، وهو نشاط إنساني تبدو فيه نوازع الإنسان ومايكون له وما تسوِّل له نفسه به.

وقد يكون المثل أصدق وأوفي بالإعراب عن هذا من الشعر القديم، ذلك أن القصيدة القديمة بناء خاص له عناصره وله مقوماته، وأن القصيدة لدي أي شاعر لاتختلف عن القصيدة لشاعر آخر ذلك أن كلتيهما قد اشتملت علي عناصر مشتركة لابد من توفرها في كل قصيدة، وكأنّ المتنبي قد أومأ إلي شيء من هذا في مطلع قصيدة له وهو:

إذا كان مَدحٌ فالنسيب مُقدَّمُ أكـلُّ فصيحٍ قـال شعراً مُتيَّمُ

٨- إن العَصَا من العُصيَّة[1]

أقول: هذا مثل أخير أبسطه لأشير به إلي دلالته والرموز التي اشتمل عليها مما يُظهر بعض

(١) أقول: سآتي علي بسطه ما قيل في هذا المثل، وهو حديث طويل لما وُجد فيه من لوازم البيئة العربية القديمة، مع علمي أن ماقيل في أجزاء هذا الكلام شيء لايمكن أن نطمئن إليه علي أنه واقع أكيد.

لوازم البيئة العربية القديمة التي اتسمت ببداوة قاسية جافية. ثم أتحول إلي طائفة أخري من الممثل القديم يومئ إلي شيء من مظاهر الحياة تبتعد عن البداوة منهجاً في العيش وأسلوباً في الحياة.

ولنعد إلي «مَثَلثا» هذا فنقول:

قال أبو عبيد: هكذا قال الأصمعي، وأنا أحسبه «العُصيَّة من العصا، إلاّ أن يُراد أن الشيء الجليل يكون في بدَء أمره صغيراً، كما قالوا: إن القَرْمَ من الأفيل[1]، فيجوز حينئذٍ علي هذا المعني أن يقال: العَصَا من العُصيَّة.

قال المَفضّل: أوّل من قال ذلك الأفعَي الجُرهُمي، وذلك أن نزاراً لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر وإياد وربيعة وأنماراً، فقال: يا بَنيَّ، هذه القبّة الحمراء ـ وكانت من أَدَم ـ لـمُضر، وهذا الفَرَس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذا الخادم ـ وكانت شمطاء ـ لإياد، وهذه البَدُرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعَي الجرهمي، ومنزله بنجران، فتشاجروا في ميراثه، فتوجهوا إلي الأفعي الجرهمي، فبينا هم في مسيرهم إليه إذ رأي مُضرُ أثَرَ كَلأٍ قد رُعيَ فقال: إن البعير الذي رَعَي هذا لأعور، قال ربيعة: إنه لأزوَر، قال إياد: إنه لأبتَر، قال أنمار: إنه لشرود، فساروا قليلاً فإذا هم برجل ينشد جَمَله، فسألهم عن البعير، فقال مَضَر: أهو أعور؟ قال نَعَم، قال ربيعة: أهو أزوَر؟ قال: نعم، قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم، قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، وهذه والله صفة بعيري فدُلّوني عليه، قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب، وتعلّق بهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟ فساروا حتي قدموا نجران، فلما نَزَلوا نادي صاحب البعير:

هؤلاء أخذوا جَمَلي، ووصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نَرَه، فاختصموا إلي الأفعَي، وهو حَكَم العرب، فقال الأفعَي: كيف وصفتموهولم تَرَوه؟ قال مُضَر: رأيته رَعَي جانباً وتَرَك جانباً فعلمت أنه أعور، وقال ربيعة: «رأيت إحدي يَدَيه ثابتة الأثَر، والأخري فاسدته، فعلمت أنه أزوَر، لأنه أفسده بشدّة وَطْئه لازوراره، وقال إياد: عَرَفت أنه أبتر باجتماع بَعَره، ولو كان ذيّالاً لَمصَع به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود لأنه كان يرعَي في المكان الملتفّ بنته، ثم يجوزه إلي مكانٍ أرقَّ منه وأخبَثَ نبتاً فعلمت أنه شرود، فقال للرجل: ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه، ثم سألهم: من أنتم؟

(١) القرم، بفتح فسكون: الفحل من الإبل، والأفيل ـ بوزن الأمير ـ : ابن المخاض فما دونه، وهذا القول «مثل» مثبت في «مجمع الأمثال».

فأخبروه، فرحّب بهم ثم أخبروه بما جاء بهم، فقال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أري؟

ثم أنزلهم فذبح لهم شاةً، وأتاهم بخمر، وجلَس لهم الأفعي حيث لا يُرَي، وهو يسمع كلامهم، فقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أطيب منه لولا أن شاته غُذيَت بلَبَن كلبة!

فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً أطيب منه لولا أن حُبْلتها نبتت علي قبر، فقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرَي منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدعَي له: فقال أنمار: لم أر كاليوم كلاماً أنفع من حاجتنا من كلامنا، وكان كلامهم بأُذنه.

فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم دعا القهرمان مالاً، فقال فقال: ما هذه الخمر وما أمرُها؟

قال: من حُبْلة غرستها علي قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب منها، وقال للراعي: ما أمر هذه الشاة؟ قال: هي عَنَاق أرضعتها بلَبَن كلبة، وذلك أن أمّها كانت قد ماتت، ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها.

ثم أتي أمّه فسألها عن أبيه، فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لايولد له، قالت: فخفت أن يموت ولا ولد له فيذهب ذلك، فأمكنت من نفسي ابن عمّ له كان نازلاً عليه، فخرج الأفعي اليهم، فقصّ القوم عليه قصّتهم وأخبروه بما أوصي به أبوهم، فقال: ما أشبه، القبّة الحمراء من مال فهو لمضر، فذهب بالدنانير والإبل الحمر، فسُمّي «مضر الحمراء» لذلك.

وأما صاحب الفَرَس الأدهم، والخِباء الأسود فله كلُّ شيء أسود، فصارت لربيعة الخيل الدُّهَم، فقيل «ربيعة الفَرَس»،

ومأأشبه الخادم الشمطاء، فهو لإياد، فصار له الماشية البُلْق من الحبَلّق والنَّقَد[1].

فُسمّي «إياد الشمطاء، وقضي لأنمار بالدراهم، وبما فَضَل، فسُمّي «أنمار الفضل» فصدروا من عنده علي ذلك.

فقال الأفعي: إن العَصَا من العُصيَّة، وإن خُشَيناً من أخشَن، ومُساعدة الخاطل تُعَدّ من الباطل، فأرسلهن مثَلاً.

و«خُشَين وأخشَن: جبَلان أحدهما أصغر من الآخر، والخاطل الجاهل، والخَطَل في الكلام: اضطرابه.

(١) الحبلّق: غنم صغار لاتكبر، والنقد: جنس من الغنم قبيح الشكل.

والعُصَية: تصغيرتكبير. والمراد أنهم يشبهون أباهم في جودة الرأي...

أقول: بسطت هذا المثل كما ورد في «مجمع الأمثال» وكتب الأمثال الأخري، وأنا لاأشك أن يد الصنعة والوضع قد نالت منه، ولكني مع ذلك أوردته بتمامه لأضع القارئ علي أجزائه ولوازمه التي تكشف عن رموز البيئة القديمة، وما كان لأهل البادية من معرفة ذكية في معرفة الأثر واقتنائه والوصول منه إلي شيء من حاجاتهم.

ومن هنا كان أدب الأمثال مورداً مهماً لمعرفة المجتمع الجاهلي القديم، مفصحاً عن أثر تلك البيئة في تزويد الجاهلي القديم بجملة من المعارف تدخل في حياته وسلوكه اليومي.

ثم إنك واجد أن هذه اللغة التي حفل بها المثل القديم قد استجابت لحاجات كثيرة سعي إليها البدوي القديم فوجد مما ألفه بل قل أبدعه لغة وافية تحولت إلي أدب اتسم بالصدق والأصالة.

وقد ورث المسلمون هذا الأدب فكان لهم منه أدب ارتضاه الإسلام وشاع فأُرسل أمثالاً، ومن هذا ما ورد:

٩- «إن البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمنطق».

قال المفضّل: يقال: أن أوّلَ من قال ذلك أبو بكر الصديق ـ رضي الله تعالي عنه ـ فيما ذكره ابن عبّاس، قال: حدّثني علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالي عنه ـ لمّا أُمِرَ رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ أن يعرض نفسه علي قبائل العرب خَرَج وأنا معه وأبو بكر، فدُفعنا إلي مجلسٍ من مجالس العرب، فتقدَّم أبو بكر ـ وكان نسّابة ـ فسلَّم فرَدّوا عليه السلام، فقال: مِمَّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: أمن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمي، قال: فأيّ هامتها العُظمَي أنتم؟ قالوا: ذُهْل الأكبر، قال: أفمنكم عَوف الذي يقال له: لا حُرّ بوادي عَوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهي الأحياء؟ قالوا: لا؟ قال: أفمنكم جسّاس بن مُرّة حامي الذِّمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسَها؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم الـمُزدَلف صاحبُ العمامة الفَرْدة؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فلستم ذُهلاً الأكبر، أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام قد بَقَلَ وجهه يقال له دَغْفَل، فقال:

إن علي سائلنا أن نسألَـهُ والعِبء لا تَعرفُـه أو تحملَـهْ

ياهذا، إنك قد سألتَنا فلم نكتمكَ شيئاً، فمَن الرجل أنت؟ قال: رجل من قريش، قال:

بَخٍ بَخٍ، أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من تَيم بن مُرّة، قال: أمكنتَ والله الرامي في صفاء الثغرة.

أفمنكم قُصَيّ بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر وكان يُدعَى مُجمِّعاً؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هَشَم الثريد لقومه ورجال مكّة مُسنتون عجاف؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد مُطعم طير السماء الذي كانَ في وجهه قَمَراً يضيءُ ليل الظلام الداجي؟ قال: لا، قال: أفمن المُفيضين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الرِّفادة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا، قال: واجتذب أبو بكر زمام ناقته، فرجع إلي رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فقال دَغْفَل:

صادَف دَرْءَ السيل دَرْءاً يصدَعُهْ

أما والله لو ثَبَتَّ لأخبرتك أنك من زَمَعات قريش أو ما أنا بدَغفَلٍ، قال: فتبسَّم رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ، قال عليّ: قلت لأبي بكر: لقد وَقَعت من الأعرابيّ علي باقعة، قال: أَجَل، إن لكلّ طامّة طامّة «وإن البلاء مُوَكَّل بالمنطق».

أقول:

في هذا المثل جملة فوائد تتصل بشيء مما كان العربي في جاهليته يحرص عليه، ذلكم هو تعلّقه بالنسب، وضبطه لمعرفة القبائل والبطون، وما اتصل بالتجمعات الإنسانية. وقد بقي الكثير من هذا، والاسلام قائم، مع أن الإسلام حث علي أن الناس سواسية لا فرق بين عربيّ وأعجمي إلا بالتقوي، وكان الرسول يقول: خِياركم في الجاهلية خِياركم في الإسلام.

علي إن الإسلام أبقي كثيراً من عادات العرب مما يدعو إلي مكارم الأخلاق، والرسول الكريم هو القائل: «بعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق».

ومن هذا القول المأثور الذي يندرج في سلسلة المثل القديم، وهو:

١٠- «إن النساء لحم على وَضَم».

قال الميداني:

الوَضَم: ما وُقِيَ به اللحم من الأرض باريّة[١] أو غيرها.

---

(١) الباربة: حصير منسوج من قصب ونحوه.

وهذا المثل يُروَي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ ، حين قال: لا يَخْلُونَّ رجل بمغيبة[1]، إنّ النساء لحم علي وَضَم.

أقول: وهذا المثل يشير إلي صونهم للعرض، واحترام المرأة علي أنها عِرض الرجل فينبغي أن يُصان. ومن هنا لايُباح للرجل أن يخلو بامرأة، ولاسيما اذاكانت «مغيبة».

هذا ما كان للعرب في جاهليتهم، وهو شيء مما كان لهم من «مكارم الأخلاق» التي حضّ الاسلام علي التمسك بها، وعدم التفريط فيها.

١١ـ إن البيع مُرْتَخَص وغالٍ

قال الميداني:

قالوا: أوّل من قال ذلك أُحَيحة بن الجُلاح الأوسيّ سيد يثرب، وكان سبب ذلك أن قيس بن زهير العبسيّ أتاه ـ وكان صَديقاً له ـ لما وَقَع الشرُّ بينه وبين بني عامر، وخرج إلي المدينة ليتجهّز لقتالهم حيث قُتل خالدُ بن جعفر زُهَير بن جذيمة، فقال قيس لأُحيحة: يا أبا عمرو، نُبِّئت أن عندكَ درعاً فبِعْنيها أوهَبْها لي، فقال: يا أخا بني عَبْس ليس مثلي يبيع السلاح ولا يفضُل عنه، ولولا أنيَ أكره أن استلئم إلي بني عامر لوهبتها لك، ولحملتك علي سوابق خَيلي، ولكن اشترها بابن لبَون، فإنّ البيع مرتخَص وغالٍ، فأرسلها مثلاً، فقال له قيس: وماتكره من استلآمك إلي بني عامر؟ قال: كيف لا أكره ذلك، وخالد بن جعفر الذي يقول:

إذا ما أردتَ العزَّ في دار يثربٍ ... فنادِ بصوتٍ يا أُحَيحةَ تُمنَعِ
رأينا أبا عمرٍو أُحيحةَ جارُه ... يبيتُ قريرَ العين غيرَ مُروَّعِ
ومن يأته من خائفٍ ينْسيَ خوفَه ... ومن يأته من جائع البطن يَشبعِ
فضائل كانت للجلاح قديمةً ... وأكرِمْ بفخرٍ من خصالِك أربعِ

فقال قيس: يا أبا عمرو مابعد هذا عليك من لومٍ، ولَهِيَ عنه.

أقول:

وهذا مَثَل ندرك في حواشيه طرَفاً من عادات الجاهليين ومايكون من ذلك من مكارم الأخلاق.

(١) المغيبة: المرأة غاب عنها زوجها في غزوٍ أو طَلَب أو نحو ذلك.

١٢- اذا عزّ أخوك فهُن

قال أبو عبيد: معناه: مُياسَرَتُكَ صديقَكَ ليست بضيمٍ ويركيك منه فتدخلك الحمية به، وإنما هو حُسْنُ خُلُق وتفضُّل، فإذا عاسَرَك فياسِرْه.

وكان المفضّل يقول: إن المَثَل لهذيل بن هبيرة التغلبيّ، وكان أغارَ على بني ضبّة فغَنِمَ فأقبَلَ بالغنائم، فقال له أصحابه: أقسِمْها بيننا، فقال: إني أخاف إن تَشاغَلْتم بالاقتسام أن يُدرِكَكُم الطَلَب، فأبَوا، فعندها قال:

إذا عزّ أخوك فهُن، ثم نزَل فقَسَم بينهم الغنائم، وينشد لابن أحمر:

دَبَبْتُ له الضَّرَاءَ وقُلتُ: أبقِي
إذا عزّ ابن عَمِّك أنْ تَهونا

أقول: وهذا بعض من مكارم الأخلاق التي اتّسَمت به البيئة العربية قبل الإسلام.

١٣- إنما أكلتُ يومَ أكلَ الثور الأبيض.

قال الميداني:

يَروي أن أمير المؤمنين عليّاً ـ رضي الله عنه ـ قال:

إنما مَثَلي ومَثَل عثمان كمثَلَ أثوار[1] ثلاثة كُنَّ في أَجَمة، أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهنّ علي شيء لاجتماعهنّ عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يُدِلُّ علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور، ولوني علي لونكما، فلو تركتماني آكُلُه صفَت لنا الأَجَمة، فقالا: دونك فكُلْه، فأكَلَه، ثم قال للأحمر: لوني علي لونكَ، فدَعْني آكُل الأسود لتصفو لنا الأَجَمة، فقال: دونَك فكُلْه، فأكَلَه، ثم قال للأحمر: إنيّ آكلُكَ لا مَحالة، فقال: دَعْني أنادي ثلاثاً، فقال: افعَلْ، فنادَى ألا إني أُكِلتُ يومَ أُكِلَ الثورالأَبيضُ.

ثم قال على ـ رضي الله عنه ـ: ألا إنيّ هُنْتُ ـ ويروى وَهَنْتُ ـ يوم قُتل عثمان، يرفع بها صوته.

يضربه الرجل يُرْزَأ بأخيه.

---

(١) أقول: لم يكن للثور في أدبنا القديم مايحمل علي تنقصّه، ووصفه بالغباءكما هي الحال في حاضرنا، ذلك إن «الثور» وهو الحيوان، من أعلامهم، فلدينا من الرجال الكثير من سمي «ثورا»، ومن ذلك: حميد بن ثور الهلالي الشاعر، وسفيان الثوري، محدث.

أقول: وهذا مثل استخلصه أمير المؤمنين من تجاربه في الحياة التي تجمع بين الخير والشر، والمكر والدهاء.

وفي هذا الـمثَل في حديث عليّ يبرز الثور طرفاً في «المَثَل» أي التشبيه. والثور في اللغة الحيوان المعروف الموصوف بالقوّة، ومنه ثور الوحش الذي كان له حضور في الأدب القديم، علي أنه رمز للقوّة والشدة.

وهذا يعيد إلي الأذهان ماكان للثور من رمز في مقدسات الأدب السامي القديم، ومن ذلك كان للثور طاقة خارقة لدي الآشوريين الذين مثّلوه إلهاً ذا جناحَين يجمع بين الحيوان والطير.

وقد بقي في العربية شيء من قيمة الثور أو طاقته فكان من دلالته «السيد الكبير». ومن هنا لم يكن له مايكون في أذهان المعاصرين، فقد ارتبط «الثور» لدي هؤلاء بالغباء والحمق والجهل، وهذا من غرائب الدلالة، وتناقضها في زمنين مختلفين.

وقد استوحي العرب من «الثور» الفعل «ثار يثور» وكان في ذلك المصدر «ثورة»، و«ثَوْر»، و«ثَوران».

وقد يستغرب أهل عصرنا أن يقال لهم مثلاً: إن «الثورة» في «الثور» جرياً علي كثيرٍ من المعاني المجرّدة التي نجد أصولها في «المحسوسات».

أقول: وهذه هي العربية التي أفادت من بيئتها «القديمة البدوية» في توليد المعاني، ألا تري أن «الجَمَل»، وهو الحيوان المعروف، قد أمد العربية بطائفة من المعاني مما يخيّل إليك أول وهلة أنها بعيدة عن عالَم الحيوان.

فأنت تقف علي «الجمال» و«الإجمال» و«المجاملة» و«التجمُّل»، ولو أنك أعملتَ النظر وجَرَيتَ بلطف في بحث هذه الألفاظ وصلت إلي هذه الحقيقة.

١٤- أوّل الصيد فَرَع.

قال الميداني:

الفرع: أوّل وَلَدٍ تنتجه الناقة، كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبرّكون بذلك.

وكان الرجل يقول: إذا تمّت إبلي كذا نَحَرتُ أوّل نتيجٍ منها، وكانوا اذا أرادوا نحره زيّنوه وألبسوه، ولذلك قال أوس يذكر أزمة في شدّة البرد.

وشُبِّه الهيدَبُ العَبامُ من الأقوام سَقْباً مُجلَّلاً فَرَعا

قال أبو عمرو: يُضرَب عند أوّل ما يُرَي من خير في زَرْع أو ضَرْع وفي جميع المنافع.

ويُروَي: أوّل الصيد فَرَع وبِنصاب، وذلك أنّهم يرسلون أوّل شيء يصيدونه يَتَيَمَّنون به، ويُروَي: أوّل صيدٍ فَرَعة.

يَضرَب لمن لم يُرَ منه خير قبل فعلته هذه.

أقول: ونظلّ في هذا المَثَل مع عالم الحيوان الذي أفاده العربي القديم في بيئته البدوية، فدخل في نمط من سلوكهم وعقيدتهم. ونمضي في هذه البيئة الجاهلية فنقف علي المثل:

١٥- أخَذَ أخْذَ سَبْعَة

قال الأصمعي، وكأنّه أراد النصيح، يعني أخذَ سُبْعة، بضمّ الباء، وهي اللُّبُؤة.

وقال ابن الأعرابي: أخذ سَبْعَة، أراد سَبْعةً من العدد، قال:

وإنما خصّ «سبعة» لأن أكثر ما يستعملونه في كلامهم «سَبْع»، كقولهم: سبع سموات، وسبع أرَضين، وسبعة أيّام.

وقال ابن الكلبيّ: سُبْعة رجلٌ شديد الأخذ يُضرَب به المَثَل، وهو سُبْعة بن عَوف بن ثعلبة ابن سَلامان بن ثُعَل بن عمرو بن الغَوث.

أقول: ولمنضي في مواد هذه البيئة ورموزها فنقف علي المَثَل:

١٦- إنّما أنت خلافَ الضبع الراكب

قال الميداني:

وذلك أن الضبُع إذا رأت راكباً خالَفَته وأخَذَت في ناحية أخري هَرَباً منه، والذئب يعارضه مَضادّة للضبع.

يُضرَب لمن يُخالف الناس فيما يصنعون.

أقول: «والضبع» من الحيوان، وهي تحضر في أدبهم، وقد سمّوا بها السنة المجدبة كما في قول:

أبا خراشة أمّا أنت ذو نَفَرٍ فإنّ قوميَ لم تأكُلْهُمُ الضُّبُعُ

ولعل هذه التسمية بسبب أن الضبع في سني الجَدْب تلزم البوادي.

وأنت تري أن هذه الرموز الحيوانية تعرب عن شخوص البيئة البدوية القديمة.

ونمضي في هذه البيئة القديمة نقف فيها على ما كان يعمرها من شخوص فنقرأها في الـمَثَل:

١٧- اذا نام ظالع الكِلاب.

قال الميداني:

قال الأصمعي: وذلك أن الظالع منها لايقدر أن يُعاظل مع صحاحها لضعفه، فهو يؤخّر ذلك وينتظر فراغ آخرها، فلاينام حتي إذا لم يبق منها شيء سَفَدَ حينئذٍ ثم نام.

يُضرب في تأخير قضاء الحاجة.

أقول: لقد استوفي البدوي القديم معرفة بيئته القديمة، وأدرك مافيها، وعرف من ذلك سلوك الحيوان ومايكون منه، فأفاد من هذه التجارب ما استعاره في شؤونه هو، فكان في ذلك «المثل» الذي هو صورة لتلك البيئة، وصديً قريباً لها.

كما نجد صدي هذه الملاحظة في شعرهم، قال الحطيئة:

ألا طَرَقَتْنا بعدما نامَ ظالع الـ ـكلابِ وأخْبَى نارَه كل مُوقِـدِ

ونمضي في استيفاء هذه الشخوص فنقف علي الـمَثَل:

١٨- إنما هو ذَنَب الثعلب.

قال الميداني:

أصحاب الصيد يقولون: رَواغ الثعلب بذَنَبه يُميله فتتبَع الكلاب ذَنَبَه، يقال:

أروَغُ من ذَنَب الثعلب.

أقول: وهذه ملاحظة للبدوي القديم دَخَلت حيِّز الـمَثَل الذي كشف عن شخوص البيئة القديمة التي خبرها ساكنو البادية فأفادوا منها فكانت تجربةً وسلوكاً وحياة، ظهر كل ذلك في أدبهم.

ونمضي في هذه المسيرة اللغوية التاريخية فنقف علي «الـمَثَل» ينتظم في الرَجَز القديم، وقد يكون شعراً، فنقرأ قول الراجز:

١٩- إذا اعتَرَضْتَ كاعتراض الهِرَّهْ
أوشَكْتَ أن تَسقُطَ فى أفـُرَّهْ

قال الميداني:

اعتَرَضَ: افتعَلَ من «العَرْض» وهو النشاط. والأُفْرَة: الشِّدَّة.

يُضرَب للنشيط يغفل عن العاقبة.

ومن هذه الرموز الحيَّة نجد الضَبَّ الذي يشغل مكاناً في أدبهم ومنه المَثَل:

٢٠- إنْ تَكُ ضبّاً فإنى حِسْلُهُ

أقول: «الحِسْل»: وَلَدُ الضبِّ، والجميع: الحُسُول. ويقال في «الـمَثَل» أيضاً:

«لا آتيكَ سنَّ الحِسْل»[1]: أي لاأتيك أبداً، وذلك أن الضبَّ لا يسقُط له سِنّ، ويُكنَى الضبّ: أبا الحِسْل.

ويُضرَب الـمَثَل المذكور في أن يلقَى الرجل مثله في العلم والدهاء.

وأنت تري أن البدوي القديم قد استوفَى معرفة مايحيط من الأناسي، والحيوان والطير والشجر والنبات، ومايشخص في بيئته من لوازم، كالتل والجبل والسفح وسائر مايبدو في الأرضين، وسنري الكثير من هذا.

٢١- أخذه أخذَ الضبِّ وَلَده.

قال الميداني:

أي أخذَه أخذةً شديدة، أردا بها هلكَته، وذلك أن الضبَّ يحرُس بيضه عن الهوامّ، فإذا خرجت أولاده من البيض ظنَّها بعض أحناش الأرض، فجعَل يأخذ ولده واحداً واحداً ويقتله، فلاينجو منه إلاّ الشريد.

٢٢- إنه لصِلٌّ أصلال.

قال الميداني:

الصِّلّ: حيَّة تقتل لساعتها إذا نهَشَت.

يضرَب للداهي، قال [النابغة]:

ماذا رزِئنا من حيَّةٍ ذكرٍ نَضْناضةٍ بالمنايا صِلٌّ أصلالِ

أقول: وهذا المثل يصل إلي «الصِّلّ» فيلمح في نهشه ولدغه الفتك الذي هو صفة «الداهي» علي سبيل التشبيه.

ونمضي في هذه الرحلة فنعود إلي «البعير الصعب» في الـمَثَل:

---

(١) يدخل هذا المثل في حيّز الأمثال التي تشير إلي النفي وهي كثيرة، وقد يكون النفي معنَي دون أن تصدّر العبارة بأداة النفي، كقولهم: لا يكون ذلك حتي يؤدب القارظان. وهو مثل أيضاً.

٢٣- إنهَ ليُقرِّد فلاناً.

أي: يحتال له ويخدعه حتي يستمكن منه.

وأصله: أن يجيء الرجل بالخطام إلي «البعير الصعب» وقد ستَره عنه لئلا يمتنع، ثم ينتَزع منه قُراداً حتي يستأنس البعير ويُدني إليه رأسه فيرمي بالخطام في عُنقه، وفيه يقول الحطيئة:

لعمرُكَ ما قُراد بني كُلَيبٍ إذا نُزِعَ القُراد بمُستَطاعِ

أقول: وهذا من تجاربهم مع الحيوان، وكيف يستمكنون منه إذا كان صعباً، وفيه شيء أدركوه من صفة الحيوان ومايعرض له مما يؤذيه ويُريحه. وهم من هذا كله يفيدون شيئاً يستعيرونه إلي مايكون فيهم علي أساس من التشبيه.

وهم يشبهون حال من يحتالون له ويخدعونه ويستمكنون منه بحال البعير الصعب وكيف يتوصّلون إلي إخضاعه.

وأنت تجد هذا في أدبهم مثلاً وشعراً.

ولنا أن نتجاوز بهذا القدر الذي عرضنا مما يتصّل بحضور الحيوان في المثل إلي شيء آخر يتصل بالبيئة القديمة، ومافيها مما يسفر عنه أدب الأمثال فنقرأ قولهم:

٢٤- إنما هو كبَرْقِ الخُلَّب

قال الميداني:

يقال: بَرْق خُلَّبٌ، وبَرْقُ خُلَّبٌ، بالإضافة، وهما البَرق الذي لاغيث معه كأنه خادع. والخُلَّبُ أيضاً: السحاب الذي لامطر فيه، فإذا قيل: بَرْق الخُلَّب، فمعناه برق السحاب الخُلَّب.

يُضرَب لـمَن يَعِد ثم يُخلف ولا يُنجز.

أقول: وكما استوفي البدوي القديم معرفة ما يأنس إليه من الحيوان والطير وما لا يأنس إليه، كذلك عرف بيئته ومايعرض لها من أحوال.

ثم إنه لقسوة هذه البيئة وجفائها أدرك قيمة الماء الذي هو «الحياة» له. ومن هنا عرفه فيما يُرسل السحاب منه فدعاه «غيثاً». وهذه الكلمة ذات دلالة، وهي ذاهبة إلي كل ما هو خير وعون ونجدة. وليس غريباً أن يكون في العربية «غَوث» مأخوذاً ومستوحيً من «الغيث» الذي يُغاث به الجَدْب[1].

(١) لقد دلّ الاستقراء أنهم فرّقوا في أكثر الأحايين بين «الغيث» الذي هو «غوث وخير ورحمة» وبين «المطر» الذي حرفوه في أدبهم إلي الشرّ والعذاب. وخير ما يشير إلي هذا ماورد من «المطر» في لغة التنزيل العزيز.

وكان من ذلك أن عرف البدوي السحاب فكان من ذلك لغة وأدب فيهما الكثير من الدلالات التي تعود إلي السحاب، وجدواه وصفاته. وليس غريباً أن يفطن اللغويون إلي «السحاب» فيعقدون له الأبواب والفصول فتكون من ذلك «مصنّفات» مشهورة.

وأنت تستطيع أن تدرك هذا المثل، فتعرف سرّ التشبيه في الرجل يخلف وعده ولا ينجز بالسحاب الذي يحلو من الغيث.

ونمضي في هذا الأدب فنقف علي، استوقَفَ البدوي القديم في بيئته فنقرأ قولهم:

٢٥- إن يبْغِ عليكَ قومُك لا يبْغِ عليكَ القَمَر.

قال الميداني:

قال المفضّل بن محمد: بَلَغَنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبّة في الجاهلية تراهَنوا علي الشمس والقَمَر ليلة أربَعَ عشرة، فقالت طائفة: تطلُع الشمس والقَمَر يَري، وقالت طائفة: بل يغيب القَمَر قبل أن تطلع الشمس فتَراضَوا برجلٍ جعَلوه بينهم، فقال رجل منهم: إنّ قومي يبغون عليّ، فقال العَدْل: إن يبْغِ عليكَ قومُكَ لايبغِ عليك القَمَرُ، فذَهَبَ مثلاً، هذا كلامه.

والبَغي: الظلم، يقول: إنْ ظَلَمَكَ قومُك لايظلمُك القَمَر، فانظر يتبيّن لك الأمر الحق.

يُضرَب للأمر المشهور.

أقول: استرعت الشمس والقمر نظر العربي القديم حتي كان للشمس في وجودهم فكر اتّسَم بقدسية، وكان للشمس في واقعهم صنم يعبدونه، وليس «عبدشمس» من أعلامهم إلا من هذا. والشمس لديهم ذات قوة وشدة وهي نار موقدة، ومن هنا كانوا يخشونها وإن كانوا يرون فيها الجمال المشرق، وأنها تطلع عليهم بالنور بعد ظلام الليل.

وكان القمر نور وإشراق وجمال وهدوء. وقد غلّبوا القَمَر، لأنه مذكر، فقالوا: «القمران» و«النيران».

وكأنّ «الشارق» من نعوتهم يشير إلي الشمس، فكان من أعلامهم «عبد الشارق».

ولما كان هذا اتصالهم بالشمس والقمر، كان لكل منهما حضور في أدبهم، وليست بي حاجة إلي أن أثبت شيئاً من ذلك، فهو معروف مشهور.

وكما كان القمرمشهوراً صيرَ به إلي كل مشهور معروف كما في «المثل» المذكور.

ونمضي في هذه المسيرة فنقف علي قولهم:

٢٦- إن كنتَ ريحاً فقد لاقيت إعصاراً

قال الميداني:

قال أبو عبيدة: الإعصار ريح تهب شديدة فيما بين السماء والأرض.

يُضرَب فيما بين السماء والأرض.

يضرَب مَثَلاً للمُدلّ بنفسه إذا صُلِيَ بمن هو أدهي منه وأشدّ.

أقول: وفي هذا «المثل» تظهر معرفة البدوي القديم للريح والإعصار، وقد كان للعرب معرفة وافية في الرياح واتجاهاتها، وقد بَرَز ذلك فيما ورد في لغة التنزيل في آيات كثيرة وردت فيها «الرياح». و«المعصرات» هي الرياح التي تجيء بالإعصار.

ومن هنا كان للغويين عناية خاصة بالرياح فصنّفوا فيها[1].

وأنت تجد للنهار والليل، ومايتصل بالزمان أثراً بيّناً في المثل القديم، وأنهم استوحوا من اشراقة الضحي وكرّ العشي أدباً رفيعاً يظهر في طائفة في الأمثال، منها:

٢٧- أمرٌ نهارٍ قُضِيَ ليلاً.

ويضرَب لما جاء القوم علي غرّة منهم ممن لم يكونوا تأهّبوا له.

٢٨- أمرٌ سُرِيَ عنه بليل.

أي قد تقدّم فيه وليس فجأة، وهذا ضد المثل السابق.

٢٩- إن مع اليوم غداً يا مُسعدة.

يضرب مثلاً في تنقل الدول علي مَر الأيام وكرّها.

٣٠- إحدَى لياليكِ فهيسى هِيسى.

قال الميداني:

قال الأموي: الهَيْس السَّير أيَّ ضَرب كان، وانشدَ:

إحدَي لياليك فهيسي هيسي لا تنعُمي الليلةَ بالتعريسِ

يضرَب للرجل يأتي الأمر فيه إلي الجدّ والاجتهاد، ومثله قولهم:

٣١- إحدَى لياليكِ من ابن الحُرِّ إذا مشىَ خَلْفَكِ أن تجترّى

إلا بقيصوم وشِيح مُرِّ

(١) كتاب «الريح» لابن خالويه، نشره المستشرق الروسيّ كرتشوكوفسكي في أحد مجلدات منشوراته بموسكو.

يضرب هذا في المبادرة، لأن اللص إذا طَرَد الإبل ضَرَبها ضَرْباً بعجلها أن تجترّ.

أقول: وأنت تري في حواشي الـمَثَل القديم شيئاً من لوازم البيئة البدوية بنبتها البدويّ ومنه «الشيح والقيصوم».

ومن لوازم تلك البيئة قولهم في مَثَل:

٣٢- أخذَت الأرضُ زُخاريَّها.

قال الميداني:

وذلك إذا طال النبتُ والتفَّ وخَرَجَ زَهرُه، و«مكان زخاري النبات» إذا كان نبته كذلك، من قولهم: «زَخَرَ النبت»، قال ابن مقبل:

زَخاريّ النبات كأنّ فيه جيـــاد العبقريّـةِ والقطـوعِ

ويضرَب لمن صلَح حاله بعد فساد.

أقول: ولقيمة النبت عرفوه وميّزوا بين أنواعه، وما كان من حُرّ البقل، وما كان سيّءٍ منه، وصنفوا في ذلك مصنّفات[1].

ومن هذا قولهم:

٣٣- أنا جُدَيْلُها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المُرَجَّب.

قال الميداني:

الجُذَيْل: تصغير الجذْل[2]، وهو أصل الشجَرة. و«المُحَكَّك»: الذي تَتَحكّك به الإبل الجَرْبَى، وهو عود يُنصَب في مبارك الإبل تتمرس به الإبل الجَرْبَى.

و«العُذَيْق»: تصغير العَذْق[3] ـ بفتح العين ـ وهو النخلة،

و«الـمُرَجَّب»: الذي له جُعِلَ له رُجْبَة، وهي دِعامة تُبنَى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوّفوا عليها أن تنقعر من الرياح العواصف، وهذا تصغير يراد به التكبير، نحو قول لبيد:

وكل أناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهيَـة تصفـرُّ منهـا الأنـامـلُ

يعني الموت.

(١) منها «كتاب النبات» للأصمعيّ (نشر المطبعة الكاثوليكية) بتحقيق «هَفْنَر».

(٢) والجِذْل، باللام هو «الجِذر» في عربيتنا المعاصرة.

(٣) العَذق بمعنى النخلة، وهو اللام «عتك» ومعناه «العرجون».

قال أبو عُبَيد: هذا قول الحُباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، قاله يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر، يريد أنه رجل يُستَشفَي برأيه وعقله.

أقول: هذا مثل يبدو فيه شيء من لوازم البيئة البدوية بما فيها من «نَبت» قائماً علي «جذله» الموصوف «بالمُحكَّك» والجذْل يتجاوز «الجذر» في العربية المعاصرة فهو أصل الشجرة وشيء من ساقها، ولذا فهو عُود ينصَب في مبارك الإبل تتمرّس به الإبل الجَرْبَي.

فأنت هنا تعرف شيئاً من ممارساتهم فيما تحزبهم إليه الحاجة.

ثم إن مُرسل الـمَثَل يصف نفسه بـ «بالعُذَيق المُرجَّب». وقد عرفت المراد بالصفة والموصوف، ولكنك تعرف إذا أطلت النظر أن النخلة «سيدة الشجرة»، ومن أجل ذلك قال المعريّ:

كَلفنا بالعراق ونحن شَرْخ وزُرْنـا أشرفَ الشجـر النخيلا

وكأن المعرّي أومأ الي المأثور في الأثر.

«أوصيكم خيراً بعَمَّتكُم النخلة».

لقد تعلق الأقدمون وعَرَفوا لها قَدْرَها، وكأنهم دَرَسوها علي نحو ما يَدرُس أهل العلم في عصرنا مادة «النبات».

لقد عرفوا النخلة في صباها وفتوَّتها وهَرَمها، وعرفوا خيرها وجَناها، ووصفوا خَلْقَها فكان من جملة ذلك أدب حيّ وافر بالخير والأصالة.

وكان من عنايتهم بالنخلة أن عرفوا أصولها وما كان من نَسَبها، ولذلك وصفوا النخل بـ «الكرائم» كما نَعَتوا الخيْل بـ «الكرائم»[1].

ونظل قليلاً مع النبت والشجر لنعرف لوازم البيئة البدوية القديمة فنقرأ قولهم:

٣٤- إيّاكم وخضراء الدِّمَن.

قال رسول الله ـ صلي الله عليه وسلم ـ فقيل له: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: المرأة الحسناء في منبت السوء.

(١) جاء في الأثر الشريف: الخيلُ معقود بنواصيها الخير.
إن «الخيل» من الحيوان الذي كان العرب يقدرون له قَدْره، ومن أجل ذلك عنوا به. وقد أدرك هذا اللغويون فخصّوه بالتأليف فكتبوا في «خلق الفرس» وجاءوا في ذلك بمعجم خاص، كما فطنوا إلي أن الخيل من المواد التي عرف العرب نسبها فكان من ذلك «كرائم الخيل» فكتبوا في «أنساب الخيل» كتباً مشهورة وصلت إلينا، وكان من ذلك أدب وافٍ يشير إلي البيئة العربية.

قال أبو عبيد: نراه أراد فساد النسب إذا خيف أن يكون لغير رِشدة، وإنما جعلها خضراء الدِّمَن ـ وهي ما تُدمِّنُه الإبل والغنم من أبوالها وأبعارها ـ لأنه ربما نَبَت فيها النبات الحَسَن فيكون منظره حسناً أنيقاً ومَنبته فاسداً، هذا كلامه.

قلتُ [أي الميداني]: إن «إيّا» كلمة تخصيص وتقدير المثل: إيّاكم أخُصّ بنصحي وأُحذِّركم خضراء الدِّمَن، وأدخل الواو ليعطف الفعل المقدَّر علي الفعل المقدَّر: أي أخصُّكم وأُحذِّركم. ولهذا لايجوز حذفها إلا في ضرورة الشعر، لاتقول: إيّاك الأسَدَ» إلا عند الضرورة، كما قال:

«وإيّاك الـمَحاينَ أن تَحينا».

أقول: قال الرسول الكريم: «أنا أفصحَ من نَطَق بالضاد بيد أني من قريش». لقد كان كلامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أبلغ الكلام بعد لغة التنزيل، وإنما حاز هذه المرتبة لأنه عَرَف أسرار العربية، فنَطَق بها وأدرك العرب أنه تكلم بلغتهم التي كانت بنت تلك البيئة البدوية القديمة، ولما أراد أن يعبر عن المرأة الحسناء من أصل سيء ذهب إلي طبعه فاستعار لهذا المعني البديع «خضراء الدمن» فأجاد التصوير وأحكم الأداء في عبارة تشير إلي ما كان في تلك البيئة من خواصّ.

ونظل في بَسْط لوازم تلك البيئة في أعيان النبت والشجر فنقرأ قولهم:

٣٥- إنك لعالم بمنابت القَصيص.

قالوا: القَصيص جمع قَصيصة، وهي شُجيرة تنبت عند الكمأة، فيُسْتَدَلّ علي الكمأة بها.

يضرَب للرجل العالم بما يحتاج إليه.

ومما يندرج في سياق مانحن فيه من الشجر يحضر في أمثالهم مأخوذاً مما ينبت وما عرفوه وأفادوا منه قولهم في الـمَثَل:

٣٦- أنا إذًا كالخاتل بالمَرْخة.

قال الميداني:

الـمَرْخ: الشَّجَر الذي يكون منه الزِّناد، وهو يطول في السماء حتي يُستَظلّ به،

قالوا: وله ثمرة كأنّها هذه الباقلاء، ومعني الـمَثَل:

أنا أباديك وإن لم أفعل، فأنا إذاً كمن يَختلُ قِرْنَه بالـمَرْخة في أن لها ظلاً وثمرة، ولا طائل لها إذا فُتِّش عن حقيقتها.

يُضرَب في نفي الجُبْن: أي لا أخافك.

أقول: إن سعة العربية تؤذن للعارف بها أن يتفسّح في فنّ القول، فقد يكون الإنسان شجاعاً لايخاف خَصْمه، ويستطيع أن يعبر عن هذا بصور كثيرة، ولكن العربيّ القديم يستعير مما له في بيئته من الحيوان والنبات والشجر وغير ذلك مما يألفه ويشاهده في بيئته فيأتي بالصورة الموحية بما يكون فيها من صدق وأصالة مع إجادة للتصوير الذي يعطي المعني بهاءً وجمالاً.

ونمضي في ايراد هذه اللوازم البدوية القديمة فيما جاء من مَثَل:

٣٧- إنه لأحمرُ كأنّه الصَّرْبة.

قال الميداني:

قال أبو زياد: ليس في العِضاه اكثَر صَمْغاً من الطَّلْح، وصَمغُه أحمر يقال له: الصَّرْبة.

يضرَب في وصف الأحمر إذا بُولغ في وصفه.

أقول: و«العِضاه» شجر ضخم كثير الشوك يكثر في بوادي بلاد العرب، ومنه الطلح الذي نصادفه في شعرهم. وفي هذا المثل إيماءة إليه في صَمْغه الذي هو «الصَّرْبة» فأنت تجد المثل يعيد اليك صورة البادية وماتحفل به من نبات وشجر وحيوان ولوازم أخري.

قلت: «لوازم أخري» ومن هذه «الماء» الذي هو مادة الحياة ولندرته في حيز البادية حرص عليه البدوي القديم وأشار إلي ما فيه من خير وبركة وحسن وبهاء. وقد رأينا كيف كانوا في «الغيث» الذي كانوا فيه يغاثون، ويبدو حرصهم علي الماء ونحن نقرأ المثل القديم:

٣٨- أَن تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكيَسُ

قال الميداني:

أي «مع ماءٍ» كما قال الله تعالي: ﴿وقد دخلوا بالكفر﴾. يعني إن تَرِد الماء ومعك ماء إن احتَجْت إليه كان معك خيرٌ لكَ من أن تفرِّط في حمله، ولعلّك تهجم علي غير ماء، وهذا قريبٌ من قولهم «عَشَّ إبلَك ولا تَفْتَر».

يضرَب في الأخذ بالجزم.

أقول: ونتجاوز أمر «اللوازم» التي نلمسها في البيئة البدوية التي ظهرت في المثل والشعر لنقول أن الماء علي ندرته من «اللوازم» التي تعلقوا بها وسعوا إليها، وربما فاق العرب الأقدمون سائر الأمم الأخري في معرفة الماء وما يمكن أن يكون منه، ومن أجل ذلك كان لديهم مرادفاً للحياة.

ألا تري أنهم إن افتقدوا عنصر الحياة في شيء مارسوه أو عالجوه قالوا: لا ماء فيه، فقد تكون القصيدة لديهم لاماء فيها بمعني أنها تفتقر للحياة والخير والجمال.

ونظل مع الماء في مواضعه فنراهم ينقلونه إلي حيِّز آخر فيقولون:

٣٩- إنما أخشى سَيْلَ تَلْعتي

قال الميداني:

التلّعة: مسيل الماء من السنَد إلي بطن الوادي.

أقول: إن الخوف من الأقارب وبني العم معروف في المجتمعات البدوية القديمة، ولكن العرب استعاروا لهذا المعني ما في بيئتهم من مواد.

ألا تري أن حضور البيئة في هذا القدر من مواد الأدب القديم، أعني الـمَثَل، أوضح منه في حيِّز القصيدة القديمة التي فرض عليها نظم القصيدة، وهي حبيسة في قيدي الوزن والقافية، ما لايبيح للشاعر أن يتفسّح فيه علي نحو ما يكون لديه ذلك في الـمَثَل.

ثم كأن مادة القصيدة الجاهلية كيان خاص له أوله، ومايكون في حشوه، ومااينتهي اليه.

قد نقول إن «الحكمة» وجدت في الشعر، ودونك مطولة زهير ومطولة لبيد، وغير ذلك.

والجواب: إن هذه الحكم كانت نظرات عامّة لاتدخل في شؤون الناس التي نجدها في حيز الـمَثَل.

ونتحول من هذه اللوازم لمواد أخري تتصل بحياة البدوي القديم فنقرأ قولهم:

٤٠- أَخَذَه برُمَّته.

قال الميداني:

أي بجملته، الرُمَّة قطعة من الحبْل بالية[1]، والجمع رُمَم ورِمام.

وأصل الـمَثَل: أنّ رجلاً دَفَع إلي رجل بعيراً بحبْل في عنقه، فقيل لكلّ من دَفَع شيئاً بجملته: دَفَعه إليه برُمَّته، وأخَذَه منه برمَّته، والأصل ما ذكرنا.

أقول: إن أخذ الشيء كلّه وجميعه قد يُصار إليه بكثير من الصور، ولكن البدوي القديم وَجَدَ لَديه مادة للإعراب عن هذا الأمر.

ونمضي في إيراد الحاجات التي عبَّر عنها البدوي في حيِّز المثل فكان له من مواد البداوة أدوات مفيدة، ومن ذلك قوله:

---

(١) كأني أري ان «الرِّمَّة» بكسر الراء تقترب من «الرُّمة» بمعني «قطعة الحبل البالية».

٤١- إنّه لمُعتلث الزّناد.

قال الميداني:

العَلْث: الخَلْط، وكذلك الغَلْث بالغين المعجمة، ويُروَي الـمَثَل بالوجهَين.

وأصله: أن يعترضَ الرجلُ الشَجَرَ اعتراضاً، فيتّخذ زِنادهَ ممّا وَجَدَ، واعتَلَثَ بمعني عَلَثَ، والـمُعْتلث: المخلوط.

يضرَب لمن لم يتخيّر أبوه في الـمنْكَحَ.

٤٢- الأمرُ سُلْكَيَ وليس بمخلوجة.

قال الميداني:

السُّلْكَي: الطعنة المستقيمة، والمخلوجة: الـمُعْوَجّة، في الخَلْج وهو الجذب، وأنّثَ الأمر علي تقدير الجمع، أو علي تقدير: الأمر مثل سُلْكَي، أي مثل طعنة سُلْكَي.

أقول: لا أدري أيُّما أصل أهو المثل الذي ذكرناه أم قول امرئ القيس:

نَطعَنهُم سُلكَي ومخلوجة كَـرُّكَ لأُمّين علـي نابـل

ويَضرَب في استقامة الأمر ونفي ضدّها.

وقد يكون المثل وبيت الشعر شيئاً واحداً مما يُتَمثَّل به، وفي هذا قولهم:

٤٣- إنّك خيرٌ من تفاريق العَصَا

قال الميداني:

قالوا: هذا من قول غَنيَّة الأعرابية لابنها، وكان عارماً كثير التلفُّت إلي الناس مع ضَعف أسْرٍ ودِقّة عظم، فواثَبَ يوماً فتيً فقطَع الفتي أنفه، فأخَذَت غُنيَّة ديةَ أنفه، فحَسُنت حالُها بعد فقر مُدقع، ثم واثَبَ آخرَ فقطَع أُذُنَه، فأخَذَت ديَتَها، فزادَت حسنَ حال، ثم واثَبَه آخر فقطَع شَفَتَه، فأخذت الديَة، فلما رأت ما صارَ عندها من الإبل والغَنَم والمتَاع ـ وذلك من كَسْب جَوارح ابنها ـ حَسُن رأيها فيه وذكَرَتْه في أرجوزتها فقالت:

أحلفُ بالمـروة حقّاً والصَّفَـا

أنّكَ خيـر من تفاريق العَصَـا

وقيل لأعرابيّ: ماتفاريق العَصَا؟ قال: العَصَا تُقطَع ساجورا، والسواجير تكون للكلاب وللأسري من الناس، ثم تقطَع عصا الساجور فتصير أوتاداً، ويفرَّق الوتد فتصير كلّ قطعة

شظاظاً، فإن جُعل لرأس الشِّظاظ كالفَلَكة صار للبختي مهاراً، وهو العُود الذي يدخل في أنف البختي، وإذا فُرِّق المهار جاءت منه تواد، وهي الخَشَبة التي تُشَدّ على خلْف الناقة إذا صُرّت. هذا إذا كانت عصا، فاذا كانت قناة فكلّ شَقٍّ منها قوس بُندُق، فإن فُرِّقت الشقة صارت سهاماً، فإن فُرِّقت السهام صارت حظاء، فإنْ فُرِّقَت الحظاء صارت مغازل، فإن فُرِّقت المغازل شَعَبَ به الشعّاب أقداحه المصدوعة وقصاعه المشقوقة على أنه لايجد أصلَحَ منها وأليَق بها.

يُضرَب فيمن نفعُه أعمّ من نفع غيره.

أقول: وهذا المثل يُبرز لنا سعة المواد التي يستعان بها ويُنتفَع في مادة «تفاريق العصا». ونَظَل مع العصا في قولهم:

٤٤- إن العصا قُرِعَت لذي الحِلم

أقول: لابد من ذكر خير هذا المثل على سعته كما أخبر به الميداني:

قال الميداني:

قيل: إن أوّل مَن قُرعت له العصا عمرو بن مالك بن ضبيعة أخو سعد بن مالك الكناني، وذلك أن سعداً أتَى النعمان بن المنذر ومعه خَيل له قادها، وأخري عَرَاها، فقيل له: لم عرَّيتَ هذه وقُدتَ هذه؟ قال: لم أقُد هذه لأمنعها ولم أُعرِّ هذه لأهَبَها.

ثم دَخَل على النعمان، فسأله عن أرضه، فقال: أما مَطرُها فغزير، وأما نَبتُها فكثير، فقال له النعمان: إنّك لَقوّال، وإن شئتَ أتيتُكَ بما تعيا عن جوابه، قال: نَعَم، فأمر وصيفاً له أن يلطمَه، فلَطَمَه لطمةً، فقال: ما جواب هذه؟ قال: سفيه مأمور، قال: الطمْه أخري، فلَطَمَه، قال: ما جواب هذه؟ قال: لو أُخذَ بالأولي لم يَعُد للأخري، وإنما أراد النعمان أن يتعدّي سعد في المنطق فيقتله، قال الطمه ثالثة، فلَطَمَه، قال: ما جواب هذه؟ قال: رَبٌّ يؤدّب عبده، قال: الطمْه أخرى، فلَطَمَه، قال: ما جواب هذه؟

قال: مَلَكتَ فأَسجِحْ، فأرسلها مَثَلاً.

قال النعمان: اصبت فامكُث عندي، وأعجَبَه ما رأي منه، فمَكَثَ عنده ما مَكَث.

ثم إنّه بدا للنعمان أن يبعث رائداً، فبَعَث عمراً أخا سعد، فأبطأ عليه، فأعقبته ذلك، فأقسَم لئن جاء ذامّاً للكَلأ أو حامداً ليَقتلنّه، فقدم عمرو، وكان سعدٌ عند الملك، فقال سَعدٌ: أتأذن لي أن أُكلِّمه؟ قال: إذاً يُقطَع لسانك، فأشير إليه؟ قال: إذاً تُقطَع يدك، قال: فاقرعُ له العَصَا؟ قال: فأقرعَهَا، فتناول سعد عصا جليسه وقَرَع بعصاه قَرعةً واحدة، فعَرفَ انه يقول له:

مكانَكَ، ثم قَرَع بالعصا ثلاثَ قرعات، ثم رفعه إلي السماء ومَسَح عصاه بالأرض، فعَرَف أنه يقول له:

لم أجد جَدْباً، ثم قَرَع العصا مراراً ثم رفعها شيئاً وأومأ إلي الأرض، فعرف أنه يقول له: ولانباتاً، ثم قرَعَ العصا قرعة وأقبل نحو الملك، فعرف أنه يقول: كلِّمه، فأقبل عمرو حتي قام بين يدَي الملك، فقال له:

أخبرني هل حَمدت خصباً أو ذمَمْتَ جَدْباً؟

فقال عمرو: لَم أذمُم هُزلاً، ولم أحمَدْ بتلاً، الأرض مشكلة لا خِصبُها يُعرَف، ولا جَدبُها يوصف، رائدها واقف، ومنكرها عارف، وآمنُها خائف.

قال الملك: أولَي لك، فقال سعد بن مالك يذكر قَرْعَ العصا:

قَرَعتُ العَصَا حتي تبيَّنَ صاحبي ... ولم تكُ لولا ذاك في القدم تُقرَعِ

فقال: رأيتُ الأرضَ ليس بمُمحِل، ... ولا سارحٍ فيها علي الرِّعْي يشبعِ

سواء فلا جَدْب فيُعرفُ جَدْبُها ... ولا صابَها غيث غزير فتُمرعِ

فنجّي بها حَوباءَ نفسٍ كريمةٍ ... وقد كادَ لولا ذاكَ فيهمْ تَقَطَّعُ

هذا قول بعضهم.

وقال آخرون في قولهم: «إن العصا قُرِعَت لذي الحلم»:

إن ذا الحلم هو عامر بن الظَّرِب العَدواني، وكان من حُكماء العرب، لا تعدل بفَهمه فهماً، ولا بحُكمه حُكماً، فلما طَعَن في السِّنِّ أنكر من عقله شيئاً، فقال لبنيه:

إنه قد كَبِرَتْ سنّي وعَرَض لي سَهْو، فاذا رأيتموني خَرَجت من كلامي وأخَذتُ في غيره فاقرعوا لي المِجَنّ بالعصا.

وقيل: كانت له جارية يقال لها خصيلة، فقال لها: إذا خولطت فاقرعي لي العصا.

وأتي عامر بخُنثَي ليحكم فيه، فلم يدرِ ما الحكم، فجعَل ينحرُ لهم ويُطعمهم ويُدافعهم بالقضاء، فقالت خصيلة: ما شأنُك؟ قد أتلَفْتَ مالَكَ، فخبَّرها أنه لايدري ما حُكم الأنثي، أتبعهُ مَبالَه.

قال الشعبيّ: فحدّثني ابن عباس بها قال: فلما جاء الله بالإسلام صارَت سُنّة فيه.

وعامر هو الذي يقول:

أَرَي شَعَراتٍ علي حاجبَيَّ بيضاً نَبَتْنَ جميعاً تُؤاما
ظَلَلْتُ أهاهي بهنَّ الكلا بَ أحسَبُهنَّ صواراً قياما
وأحسَبُ أنفي إذا ما مَشَيْت شخصاً أمامي رآني فقاما

يقال: إنه عاش ثلثمائة سنة، وهو الذي يقول:

تقول ابنتي لَما رأتني كأنَّني سَليمُ أفاعٍ ليله غير مُودِعِ
وما الموت أفنائي ولكن تتابَعَت عليَّ سنون من مَصيف ومَربَعِ
ثلاثُ مئين قد مَررْنَ كواملاً وها أنا هذا أرتجي مَرَّ أرْبَعِ
فاصبحتُ مثل النَّسْر طارت فراخُه إذا رامَ تَطياراً يقال له: قَعِ
أخيرَّ أخبارَ القرون التي مضت ولابدَّ يوماً أن يُطار بمَصْرَعي

قال ابن الأعرابيّ: أوّل مَن قُرِعَت له العصا عامر بن الظَّرِب العَدوانيّ، وربيعة تقول: بل هو قيس بن خالد بن ذي الجدَّين.

وتميم تقول: هو ربيعة بن مخاشنٍ أحد بني أُسيد بن عمرو بن تميم.

واليمن تقول: بل هو عمرو بن حمَنَة الدَّوسي.

قال: وكانت حكّام تميم في الجاهلية أكثم بن صيفي، وحاجب بن زُرارة، والأقرع ابن حابس، وربيعة بن مخاشن، وضمرة بن ضمرة، غير أنّ ضمرة حَكَم فأخذ رشوة فغدر.

وحكّام قيس: عامر بن الظَّرب، وغَيلان بن سَلَمة الثقفي، وكانت له ثلاثة أيّام: يوم يحكم فيه بين الناس، ويوم ينشد فيه شعره، ويوم ينظر فيه إلي جماله، وجاء الإسلام وعنده عشر نسوة فخيّرة النبيّ ـ صلي الله عليه وسلم ـ فأختار أربعاً، فصارت سنّة.

وحكّام قريش: عبد المطّلب، وأبو طالب، والعاصي بن وائل.

و،حكيمات العرب: صحر بنت لقمان، وهند بنت الخس، وجُمعة بنت حابس، وابنة عامر بن الظَّرب الذي يقال «ذو الحِلم»، قال المُتلمِّس يريده:

لذي الحِلمِ قبل اليوم ما تقرع العصا
وما عُلِّم الإنسان إلا ليتعلَما

ويُضرَب المَثَل لمَن إذا نُبِّهَ انتبَه.

أقول: لقد أفضَت في بسط هذا المثل، واختلفوا في القائل، ولعل القارئ يجد في أجزاء ما يحمله علي أن يكون أقرب إلي الشكّ في هذا السرد وهذه السعة، وفي اختلاف الرواة في نسبة المثل إلي قائله. ولكثرة ما عرف من الوضع والتزيّد في الأخبار صرنا أميل إلي حمل

الكثير علي الكذب، ولم نفسح في أنفسنا مجالاً إلي بعض التصديق.

ولا أريد أن أقول: إن جملة ما بسطت صدق وحق، ولكني أذهب إلي بين هذا كله حقيقة قد غطّى عليها شيء قليل أو كثير من الوضع.

وأياً ما كان الأمر فليس عندي ذلك بشيء، وذلك لأني أردت أن أبسطه فأتبين بعضاً من لوازم الأدب القديم ولاسيما المثل، فقد عرفنا ما كان يحزب القوم في عيشهم وفي سلوكهم، وما يتأتّي من ذلك من مشكلات اتسمت بها حياتهم.

وبعد فإن المثل تجربة حيّة تناسب ظرفها الذي أرسل فيه المثل وتصلح أن تكون قاعدة فيما ناسبها من ظروف أخري.

ونمضي بعد هذه الوقفة الطويلة في مسيرتنا فنقف علي شيء من سلوك الأقدمين كما يتضّح في المثل:

٤٥- أوّل الغزو أخْرَق.

قال الميداني:

الحَرْب أوّلِ ماتكون فَتِيّةً تَسْعَي بزينتها لكل جَهول
حتي إذا استعرت وشَبّ ضِرامها عادت عجوزاً غير ذات خَليلِ

قال أبو عبيد: يُضرَب في قلّة التجارب كما قال الشاعر:

وصف الغزو بالخُرق لخرق الناس فيه، كما قيل: ليل نائم لنوم الناس فيه.

أقول: لقد شُغل المجتمع البدوي القديم بالغزو والقتال لأسباب اقتضتها ظروفهم فمنها ما كان يتصل بعيشهم وقلّة مواردهم، ومنها ما كان طلباً للثأر، ومنها ما كان امرٌ يقتضيه أن يشاركوا حلفاءهم الذين اضطروا إلي الغزو.

ومن هنا كان المثل إشارة إلي تجربتهم في هذا السلوك الإنساني القديم.

ومن تجاربهم الخاصة ما نستجليه في قولهم:

٤٦- إنّه نَسيج وَحْدِه.

قال الميداني:

وذلك ان الثوب النفيس لايُنسَج علي منواله عدة أثواب.

قال ابن الأعرابيّ: معني «نَسيج وحده» أنه واحد في معناه ليس له فيه ثانٍ كأنّه ثوب نُسِج علي حِدته لم يُنسج معه غيره.

وكما يقال: «نَسيج وحده» يقال: «رَجُلٌ وَحْده».

ويروَي عن عائشة أنها ذكرت عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقالت: كان والله أحوَذياً، ويروي بالزاي، نسيج وَحده، قد أعدَّ للأمور أقرانها، قال الراجز:

جاءت به معتجراً ببُردِه ... سفواءَ تردي بنسيج وَحْدِه

أقول: وهذا المثل قد وُصل إليه من حيّز ما يعملون في قضاء حاجاتهم، ومثله في هذه الخصوصية قولهم:

٤٧- إنما يُعاتَب الأديمُ ذو البَشَرة

قال الميداني:

المعاتَبة: المعاوَدة، وبَشَرة الأديم: ظاهره الذي عليه الشعر، أي أن ما يُعاد إلي الدَّباغ من الأديم ما سَلِمَت بشرته.

يضرب لمَن فيه مراجعة ومُستَعتَب.

قال الأصمعي: كل ما كان في الأديم محتَمل ما سَلِمت البَشرة، فاذا نَخِلَت البَشرةُ بَطَل الأديم.

٤٨- اذا سَمِعْت بسُرَى القَيْن فاعلَمْ أنّه مُصْبِح.

قال الميداني:

قال الأصمعي: أصله أن القَيْن بالبادية يتنقّل في مياههم، فيُقيم بالموضع أيّاماً، فيَكسِدُ عليه عَمَلُه، ثم يقول لأهل الماء: إني راحل عنكم اللّيلة، وإن لم يرد ذلك، ولكنه يشيعه ليستعمله من يُريد استعماله، فكثُر ذلك من قوله حتي صارَ لا يُصدَّق.

يُضرَب للرجل يعرفه الناس بالكذب، فلا يقبل قولِه وإن كان صادقاً، قال مهشل بن حرّيّ:

وعهد الغانيات كعهد قينٍ ... ونَت عنه الجعائل مستذاق

كبرق لاحَ يُعجب مَن رآه ... ولايشفي الحوائمَ من لَماقِ

حدَّث أبو عبيدة عن رؤبة قال:

لقي الفرزدق جريراً بدمشق، فقال: يا أبا حزرة أراك تَمرَّغ في طواحين الشأم بَعْدُ، فقال جرير: أيهاه إذا سمعت بسُرَي القَيْن فإنه مُصبح.

قال: فعجبتُ كيف تأتّي لهما، يعني لفظ التمرُّغ ولفظ القين، وذلك أن الفرزدق كان يقول لجرير «ابن المراغة»، وهو يقول للفرزدق «ابن القين».

ونمضي في شؤونهم فنقرأ المثل:

٤٩- أبَى الحقين العِذَرة

قال الميداني:

الحقين: اللبَن المحقون، والعِذرة: العُذر.

قال ابو زيد: أصله أن رجلاً ضاف قوماً فاستسقاهم لبناً، وعندهم لَبن قد حقنوه في وَطْب، فاعتلّوا عليه واعتذروا، فقال: أبَي الحقين قبولَ العذر، أي إنه يكذبهم.

ومما يندرج في هذا الباب قولهم:

٥٠- أثر الصِّرار يأتى دون الدِّيار

قال الميداني:

الصِّرار: خيط يُشَدّ فوق الخلُف والتودية لئلاّ يرضع الفصيل، والذِّيار: بَعَر رطب يُلطَخ به أطباء الناقة لئلا يرتضعها الفصيل أيضاً، فإذا جُعِل الذيار علي الخِلف ثم شُدَّ عليه الصِّرار فربّما قَطَع الخلف.

يُضرَب هذا في موضع قولهم: «بَلَغ الحزام الطُّبْيَين» بمعني تجاوز الأمر حدّه.

أقول: ومثل هذا «بَلَغ السيل الزُّبَي».

خاتمة:

عرضت في هذه الأمثال التي عدّتها خمسون وقصدت أن يقف القارئ علي صلة المثل القديم بالبيئة العربية، وكيف يكون المثل صورة لها يرمي إلي تجارب حدثت تماثل نظائرها في كل زمان.